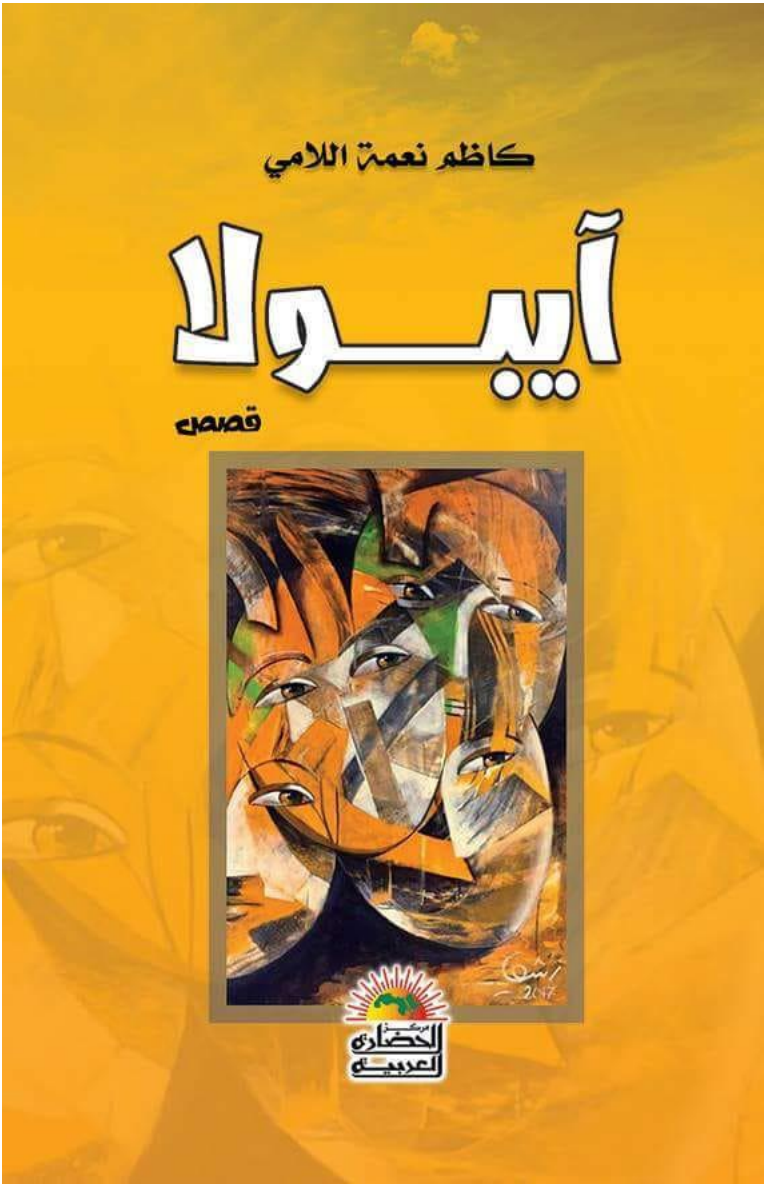

آيبولا

- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة فى ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆ ◆ ◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

◆ ◆ ◆

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

E.mail: hadaraa1990@gmail.com

كاظم نعمة اللامي

آيبولا

مجموعة قصصية

مركز الحضارة العربية

الغلاف لوحة وجوه للفنانة زبيدة الشواف.

الإهداء

الى روح أبي

الماثلة كطير الخضيري وهو يجوب الهور

حيث خبز أمي وحنّاءها وأهازيجها وصلواتها..

١٩٨٣

ثَمّة جرح سري بأغوار صامتة يغني بما يشبه العواء مكانه قحفة الرأس التي باتت كالكرة تتقاذفها أقدام الأطفال ساعة لهوهم وعبثهم. يذكرني هذا الجرح الدائم الأنين بالراديو الترانزستور خاصةُ أبي الذي تقاعد عن الهذيان بصوت مذيع فتحول إلى صُراخ أشبه بصهيل حصان، وهو يشتكي من أصابع أبي العابثة به بينً الفينة والأخرى، ممارسةٌ أخذت شكل العادة اليومية بتفريق أجزاءه على سجادة الصلاة بعد ثمان ركعات ظهرية وإعادة تجميعها من جديد مع احتمالية عطب متوقع لأحد تلك الأجزاء.

هذا الجرح يدعونني كل يوم لأسلط أضوائي الكاشفة على محطاته وأفكك أجزاءه لاكتشاف مناطق جديدة موشاة بهوية الألم، عندها أسمع معزوفات جديدة من العواء تنغص عيشي لكنها تطربني كثيرًا، حتى تصالحت في النهاية مع كل ألوان العواء.. ومرد هذه المصالحة، اعتيادنا بإدمان اجترار الذاكرة كل حين، حتى بات أحدنا لا يستطيع تخيّل حياته إن لم يعرج على ذاكرة تحتفظ بأحداث الثمانينات.....

العمارة / صيف ١٩٨٣...

عند كل صباح أستيقظ قبل الجميع وأحشر نفسي وحيدًا تحت طيات كومة فرش النوم والوسائد والبطانيات في غرفة المعيشة، وأنا أغني هامسًا أغنية قارئة الفنجان لعبد الحليم حافظ، في تقليد يومي اعتدت ممارسته قبل ذهابي إلى المدرسة. وفي أحد هذه الصباحات من سنة ١٩٨٣ وعلى نفس الهيئة، قطع

علـيّ غنائي غناءٌ آخر بصوت ينقر فـي الفضاء كمنقار ديك في كومة قمح. كان الغناء للسـاعة الجدارية التي أهداها لنا جارنا الصابئ في يوم ختاني.

واصَلَتْ الساعة غناءها المقرف وهي تعلن بدقاتها أن الوقت قد حان عند تخوم الثامنة صباحًا ويجب عليك أن تترك مكانك للذهاب إلى المدرسة. ألبي نداءها وأخرج مسرعًا كإطلالة أفعى صغيرة من بيضتها ، أزيح مجاميع الوسـائد والفرش عن رأسـي.. أفاجئ أهلي بابتسـامة أرعبتهم ليكتفـوا بجلدي موبخين بعيون مفتوحة تسع العالم كله.

- ترَيّث قليلاً ، لتأكل شيئًا..

يأتينـي صـوت أمي كخيط دخان يتسـرب مـن باب الغرفة باحثًا عني في الممر المؤدي إلى الباب الرئيسي.

- كنت قد أكَلْتُ بما فيه الكفاية قبل أن تستيقظي يا أمي..

وفي أول أمتار مشيتها في زقاقنا وقبل إدراك المدرسة أجِدُ ابنَ جيراننا ذا الخمسة أعوام وهو يلعب الكرة «أم الميتين فلس» زاهية بلونها البنـي بين أقدامه الصغيرة التي احتواها حذاء ملون جميل شغل بصري بإعجاب أجبرني أن أنحني لأمسح بظاهر يدي بقعة تراب علِقت بمقدمته. رمى كرته عند عتبة قَدَمي الكبيرة التـي لم تبخـل عليها بضربـة رفعتهـا لترقص في الفضـاء وتعود سـاكنة عند أحضانه وابتسامة جميلة توشحت بها شفتاه. وبخت نفسـي بكلمة «أمداك» التي تعني ويحك فـي التقابل مع العربية الفصحى:- كيف لك أن تلاعب طفل صغير وها أنت قد قصصت قبل أيام شريط السادسة عشر من عمرك؟ لم ألتفت لهذا التوبيخ، ضحكت قليلاً وأنا أعبث بشعري لأصْلِ الفكرة وسذاجتها.

تجاوزتُ الطفل باتجاه المدرسـة لإكمال ما بدأته من غناء

لقارئة الفنجان «وبرغم الحزن الساكن فينا ليل نهار .. وبرغم الريح وبرغم الجو الماطر والإعصار .. الحب سيبقى يا ولدي أحلى الأقدار» وكالعادة، كان قدري منذ الصف الأول الابتدائي وحتى مرحلة الجامعة أني أصلُ متأخرًا عن دخول الأستاذ للصف، ليستقبلني باسطوانة مشروحة مكتظة بالسباب والشتائم، وآخر المعتاد كلمة لا زالت ترن في أُذُنَيّ كدقات الساعة الجدارية في بيتنا...

- اعلم أيها الطالب المهمل.. ستأتي متأخرًا حتى عن لحظات الفرح.

أخذتُ مكانيَ المميز في السطر الأخير من مقاعد الصف، وهو السطر الخاص بالكسالى والراسبين وكبيري العمر. استدارَ الأستاذ ليكتب شيئًا عن الدرس .. انتهزتُ الفرصة للانتقام منه، فرميته بسهم ذي ثلاث شعب في ظهره.

- أين هو الفرح يا أستاذ!!!؟ لقد نسيناه في زحمة الخوف.

التَفَتَ نحوي بشيء من الرعب وكأنه شاهد وسمع أحد ملوك الجِنّ، اختلّ توازنه، اتكأ على السبورة بيساره، فسقط الطباشير من بين أصابع يمينه، وأخذ يداري الموقف بسعال شديد مفتعل أجبر الأستاذ الذي في الصف المجاور لصفنا أن يقبل عليه قلقًا مرتبكًا..

- خيرًا أستاذ؟.. سلامات .. بالريش بالريش.

ضَحِكْتُ في سري كثيرًا، كادت كركرة مجلجلة أن تفر من فمي بوجه الأستاذين كبصقة معتوه أو قيء مخمور، ولو حصل ذلك فعلاً لأوسعوني صفعات ثقيلة الوطء ولأغرقوني بصاقًا ونالوا من شرف أمي بكلمة «ابن القحبة»، إلا إنّ الأستاذ المسعف قمع تلك الفكرة بطلبه منّا الخروج لاستراحة مبكرة.. وعلى

إثرها خرجتُ راكضًا قبل الجميع لأحرر فمي بسيل ضحكات تغلي كادت أن تقتلني. خرجتُ ونظرات حانقة أطلقها الأستاذ راحت تطاردني موبخةً ولسان حاله يقول:-

- اللعنة عليك كدت تقضي عليّ أيها الصبي المشاكس.

الخوف مهنة بات الجميع يستسيغها كطريق لكفاية الشر الذي غدا مطرًا ينزل على رؤوس الجميع كمقصلة فرنسية بعدالة مفرطة... أو بالأحرى امتهن الناس هذا الخوف لتجنب المتاعب التي ستحدث لو تلقوا الأحداث بصدر أشوس أقعس، وكأنهم تصالحوا على تطبيق مثل قديم يردده الممثل المصري «إسماعيل ياسين» في أعماله السينمائية كثيرًا «من خاف سلم» و«امشي جنب الحيط» حتى بات يُنْعَت كل من يُحب العافية والأمن والأمان بكلمة أضحت مأثورة لدى الشارع العراقي (أجبن من إسماعيل ياسين). ليتطور الخوف وفقًا للعقل الجمعي إلى درجة من الخطورة أن من يفتح فمه بكلمة (ليش؟!!) سيتلقى صفعة موحدة ممن يتحدث معهم بنقاش على غلاء الأسعار مثلاً، لتتعالى بعدها الصرخات بأقذع الألفاظ. «انجب.. أكل خره .. طيح الله حظك.. أرعن»... شيء يبعث على السخرية والأسى في نفس الوقت... كيف لا تُرمى بهذه الألفاظ وأنت تُعْلِنُ صراحة اعتراضك جملة وتفصيلاً على ما يجري أمامك.. وهذا يعني بطرق تأويلية رفضك لصاحب القدم الكبيرة الذي سحق الجميع ببسطاله الروماني وما زال يواصل عمليات السحق المبرمجة، حتى انتهى المطاف بنا إلى حيرة مذلة ورضًا بهَدْرِ الحياة كصنبور ماء دائم الجريان وبلا طائل يُرتجى. وهذا الأستاذ أحد الذين يحبون العافية، التي من أولوياتها الخوف والانكفاء كسلعة مهملة في صندوق خشبي لعجوز فارقت أنوثتها على عجل.

انتهى العام الدراسي سريعًا وانتقلتُ إلى مرحلة دراسية أخرى، وكما قال الأستاذ «ستأتي متأخرًا حتى عن لحظات الفرح» حيث سلمني كارت الشهادة بدرجات متميزة وهو يكاد يفترسني «تَدِينُ بالفضل لكومة البراشيم التي تحتفظ بها في مختلف جيوبك»...

ما زال الجميع يمارس سلطته البشعة في قتل الفرح في النفوس الغضة للآخرين دون وازع من ضمير. وكأنهم اتفقوا على بعضهم في ممارسة هذه السلطة، الجميع يظلم الجميع، الجميع يقتل الجميع، الجميع يشي بالجميع، الجميع طعام للجميع... ولكنك تراهم أمام صاحب القدم الكبيرة خُرسًا، طُرشًا، عُميًا.

تطلعت ساخرًا في وجه الأستاذ الخائف من كل شيء إلا توبيخي.. انتزعت شهادتي من بين يديه المرتعشتين كورقة في مهب ريح. رغم غلظته معي، إلا إنني لا أنكر صدق ما قاله الأستاذ بحقي:- نعم انا متأخر في كل شيء حتى عن الفرح. أرى إن هذا الاستقراء حقيقيٌ، فالفرح له أهله وناسه وأنا غريب عنه منذ ولادتي.. كنتَ لماحًا أستاذي لقد نطقتَ بالحق وبالحق نطقتْ.

أنطلقُ خارج المدرسة بسرعة قطار، يبتلعني الشارع قاذفًا إياي وسط المارة، أحاول أن أركض مهرولاً باصطناع الفرح وبث البشرى لأمي وأبي وإعلان نجاحي كما كنت أفعل في المرحلة الابتدائية، إلا إن فوضى الشارع تمنعني من اختراقهم، وكي أكون صادقًا في الحديث أن فكرة ما هي من منعتني لفعل ذلك فخففت من لهفتي وسرعتي، فأي جدوى تُرتجى من افتعال الفرح بمناسبة تافهة كنجاحي في المدرسة ومحاولة جر والديّ إلى مناطق سعادة يجهلونها بالمرة... كيف أتجرأ لأبلّغهما فرحي أو طلب مشاركتي لغبطتي وهما قبل سنة من الآن قد زفا أخي

الكبير إلى النجف بعنوان شهيد القادسية، وقد ترك لهما زوجة شابة متكورة على ثلاثة أطفال أكبرهم ولد بسبع سنين معاقات.

أقدامي متثاقلة لا تسعفني في الوصول إلى البيت وكأن كرات حديدية بأوزان كبيرة قد عُلِّقَتْ بها لا تروم الفكاك عنها... أمسح من ذهني فكرة تبليغ والديَّ بنجاحي لذا احتفظت بإعلان النتيجة لنفسي فقط ولكن على مضض... دخلت البيت حزينًا وكأن شيئًا لم يكن، فمر الأمر لي ولهم مرور الكرام، وأنا أكرر في ذاتي: صدقت أستاذي الفاضل فأنا متأخر عن كل شيء حتى عن لحظات الفرح... لذلك، كنت أعيش التقاطع مع الجميع بطريقة التنافر لكنني كنت مرغمًا على التواجد في محيط التجاذب والتفاعل لاعتبارات اجتماعية.

خرجت من البيت متأففًا، لاحَظَتْ أمي ذلك، تبعتني بنظراتها، سمعتها تشيعني بكلمات مقدسة لم أستطع فهمها لأنني والمقدس على طرفي نقيض، فلا مقدس إلا الإنسان وفقًا لإيماني الشخصي الذي رسم لحياتي طريقًا آخر لا يحظى بإعجاب الآخرين.

تبتلعني دربونتنا الضيقة وهي تحمل لافتات التمجيد للحزب والثورة، وعلى مقربة منها بعض القطع السوداء وهي تنعي شهداء المعركة المقدسة، وثمة قطة ساهمة سوداء هي الأخرى تنظر بانتباه شديد مغلف بالحسرة على تلك القطع السوداء... يتعاظم تأففي، فيتولد خوف ما، خوف من المجهول حرضني أن لا أبارح دربونتنا باتجاه أخرى، فقررت ذرعها جيئة وذهابًا حتى أحصيتُ كل شبرٍ فيها، مما تسبب قراري هذا، بخسارة مشاهدة الفلم العربي فيٍ بدايته رغم سماعي لصوت أخي الصغير وهو يحثني على الإسراع «الفلم بدأ».

أواصل ذرعي كالمجنون لأوصال دربونتنا حتى شاهدت طفل جيراننا وهو يخرج من بيتهم مداعبًا كرته المطاطية بنفس حذاءه الجميل وبحركات بدت متطورة عما رأيته قبل أشهر مما أوحى لي أن هذا الطفل لا يبارح الشارع مطلقًا حتى آخر رمق فيه أو آخر ذرّة هواء في كرته... ابتسمَ ببراءة وهو يقول لي:- تلعب طوبة. أتقدم نحوه في محاولة لكسر رتابة الأنين الذي يسكنني إلا أن صوت انفجار وانفلاق هائل أجبرني على التعثر والسقوط متدحرجًا حتى أقدام الطفل الذي لم يبال بي ولا حتى بصوت الانفجار، بل رأيته من خلال عينين ملؤهما التراب وهو يواصل مداعبة الكرة بأقدامه الصغيرة... انفلاق آخر أجبر أم الطفل أن تخرج صارخة باتجاه ولدها لتحتضنه وهي تقول: «يمه ابني»... كذلك أمي خرجت هي الأخرى بصحبة والدي والذعر يتملكهم... «ما الذي تفعله في الخارج؟!! أدخل أيها المعتوه، أما تعرف أن القصف قد بدأ؟».

وبروحِ المحب للحياة أدخل معهم مسرعًا ونظرات الطفل تتابعني وهو يمسك كرته بيد، واليد الأخرى تقبض أمّهُ عليها بإحكام، تسحبه بارتباك ليغيبا داخل أسوار بيتهم في مشهد يشبه مغيب الشمس حينما يبتلعها الأفق.

في البيت أجد الجميع في خبط عشواء وتحليلات مختلفة لا تسمن ولا تغني من جوع، حاولت أن أتفاعل معهم في التحليل والاستقراء لكن شاشة التلفزيون وهي تعرض فيلم الأخرس لمحمود ياسين أجبرتني أن أطيل النظر بها... لاحظ أخي الصغير تركيزي على الفلم..

- لماذا لم تأت مبكرًا؟... فلم حلو... ناديتك كثيرًا.

- ألا تعرف بأني متأخر على الدوام، حتى عن لحظات الفرح؟

تطلـع في وجهي متسـائلاً وأغمض عيـن وفتح أخرى، دليل عـدم الرضا بجوابـي الذي لم يفهم منه شـيئًا. صوت انفجار آخر وبشدة أكبر اهتزت له أرجاء البيت الذي كُتب عليه منذ آدم أن يهتز ويهتز حتى أدمن الاهتزاز دون توقف كراقصة شرقية كان قدرها طيّ خصرها وعجيزتها متلوية كأفعى لا تكلّ ولا تملّ.

اختبأ الجميع خلف أبي وبين أقدام أمي إلا أنا رميت بنفسي عند عتبة التلفزيون فشعرت وكأن محمود ياسين يريد أن يبتلعني فـي لقطـة كلـوز أب لوجهه الدرامـي وهو يروم إخـراج كلمات اختنقـت في حنجرته، لكنـه عَجَزَ في النهايـة عن ذلك لكونه أخرسًا.

- هـذا الفلم شـايفه مرتين .. محمود ياسـين أخـرس، بعدين يطيب ويكوم يحجي.

الانفجـارات تتوالى وأمي تواصل لطم خدودها الطرية وهي تنثـر علينا دموعها كزجاجة عطر باريسـي، حتى رمت شـيلتها هلعًا فبان بياضُ مِفْرقِ شـعرِها الناعـم كالحرير... الصراخ يعلو في الخارج بألحانٍ صاخبة موجعة، الانفَجارات توزع حممها بعدالة الأنبياء بين الأحياء، الناس تخرج كسرب جراد فر هاربًا من سرب أكبر لعصافير جائعة... خرجوا ورفيقهم الذعر، كل يمسك بيد صغاره دون الالتفات لشـيء آخر، الناس زهدت بالغالي والنفيس إلا رغبة واحدة بالمحافظة على بقايا رميم حياةٍ هي آخر الأشياء المحترمة لديهم في هذه الحكاية المذلة... لقد تبرأوا من بيوتهم، لسان حالهم يصدح بعبارة «العراء بيتنا الجديد» لذا راحت شوارع وأزقة ودرابين المدينة تبتلعهم بجنون كحوت شره.

- الناس هجت من بيوتها بويه.

قال أخي الأصغر وهو يطل برأسـه مراقبًا من أعلى السـطح

لفضاء الدربونة التي ضاقت بناسها ، ودون مقدمات لبس أبي زيه العربي وهو يدس راديو الترانزستور في جيبه... سلوك أبي حفز أمي أن تنتزع صورة أخي الشهيد من حائط غرفته وكأنها تريد أن تقول: «تلك الصورة أعز ما أملك بل إن هذه الصورة كل ما أملك».

العقل الجمعي يسيطر على حواس الإنسان في هكذا مواقف... الهروب إلى المجهول القاسم المشترك لردة فعل الناس وهي تتفاعل مع غيرها كشرارة عيدان ثقاب في علبة كبريت... يلفظُ بيتُنا أهلي جميعهم إلى الخارج، أمي، أبي، أخي الأصغر، أولاد أخي الشهيد وأمهم... أتريّث قليلاً ، أقف قبالة شاشة التلفزيون متسمرًا ، أشاهد ، وأسمع صراخ محمود ياسين وهو يحاول إبلاغ الدكتور بنوبات المخاض لزوجته مديحة كامل، لكن الطبيب لا يفهم منه شيئًا ، كما إنه لا يملك القدرة على تبليغ حالته للطبيب... أي ألم يعيشه هذا الإنسان الذي تلاقح واقعيًا معنا لنكون نسخة منه ، فنحن في الوقت الراهن نعيش الخَرَسَ وسط هذا السيل العنيف من الانفجارات!! لا نستطيع أن نصل بمصيبتنا للعالم للخارجي كما إنهم لا يفهمون ما نحن فيه ، حتى غدونا نعيش معزولين في أمتار هربت سهوًا من أطلس العالم... فرّتْ دمعة صغيرة من عيني، لا تفاعلاً مع ما نحن فيه ، بل ألمًا على الممثل محمود ياسين الذي اعتاد أن يبكينا كثيرًا في أعماله السينمائية التراجيدية... أتقدم بأسفي له ، وأمدُ يدي لانتزاع مقبس الكهرباء من موضعه. لكنها قبل أن تصل إليه حلت شاشة سوداء غطت كامل التلفزيون وصوت محمود ياسين يرجوني أن أكمل المشاهدة حتى نهاية الفلم.

- آسف... انقَطَعَتْ الكهرباء... كما إن النهاية معروفة يا صديقي.

جمـوع الموتـى السـائرين تطبق علينا كجلـد يغطي اللحم وهـي تسـير خلف بعضها باكتظاظ للأجسـاد ، سـارت مندفعة كأنها مثقب يحفر فضاء الشوارع باتجاه اللامجهول... أُعَيِّنُ نفسي مـلاكًا للموت ، أمُـرُّ بعينَيّ على كتل اللّحم الفارِ كنملٍ يائس وهـي تقتـرب رويـدًا رويدًا من نار النمـرود... أتنبـأ بموتهم، أقوم بعزلهـم في عقلـي الباطن... أنتَ هنا ، وأنتِ هناك ، وأنتم في هذا الجانـب ، وأنتن في الجانـب الأخر ، وأنتَ ، وأنـتِ ، وأنتم. أراهم يستجيبون لتوزيعي العادل لكن أرواحهم تضج بالصراخ ، يريدون أن يتقيؤوا يومهم بسرد مخيف مغري... سيبتكر الناس قصصهم ، سـيخترعون أحداثًا أخرى لكنها قريبة من الواقع ، قصص حية تعيش الحدث.

جموع الهاربين تكبر وتتزايد لالتحاق آخرين بهم من مناطق فرعية ، وكلما سـألتَ أحدهم «ما الأمـر؟» يجيبك وهو يرتجف «قصـف إيرانـي»... الحقيقة ليسـت كما يقولـون ، هناك حقيقة أخـرى أوردهـا صقر الخباز الذي يعاني الجنـون منذ موت عائلته بأكملها في إحدى الغارات ، حيث جلس على تَلّةِ قمامة في طريق الهاربين ، وراح يخطب خطبته العصماء ورذاذ لعابه يلفح الوجوه ، فقطعَ الشـكَ باليقين أمام قناعات الناس بحقيقة الأشـياء... «بابا افهمـوا.. هذا مو قصـف إيراني... هـاي مخازن العتـاد الموجودة بالدبيسات فجروها المخربين يريدون التعجيل بحلول يوم القيامة... عرفتم الآن أي جحيم ينتظرنا». اختل توازن الجميع بمن فيهم أبي ، وبصرخـة يـأس موحدة بدت ردة فعلهم تُنبـئ بحلول الجنون فيهم تضامنًا مع صقر الخبّاز أو صقر المجنون ، فسـقط ابن أخي من يدِ أبي فراح يبكي بعد شـج رأسـه مما حفز الراديو للاسـتجابة لبكائه فسقط هو الآخر من جيب أبي فانفلق إلى قطعتين. احتار أبـي أيهمـا يلتقط أولاً ، حفيده أمْ جهاز الراديـو ، حزم أمره ورفع

حفيده، ولما هم برفع الجهاز مرة ثانية سحقته أقدام الناس وهي تحطم كل جزء فيه إلى عشرة أجزاء. أطال أبي نظرَه بالمشهد حزينًا، وهو يصوب عينيه في الفراغ وكأنه في عالم آخر، وثمة دمعة ملتهبة تكورت بحجم كرة هبطت على وجنته فتركها تنحدر بحرية حتى غسلت أجزاء الراديو المحطمة.

الجموع تسير كريح غاضبة مع كل صوت انفجار وكأنه وقود لمحركاتهم يحثهم لمواصلة الهرب، يدفعون أبي، يجرفونه في طريقهم كتيار نهر يحمل كل ما مر به من أشياء طافية.

برفقة الجميع نواصل الهرب بعقل جمعي في ترجمة الخوف، حتى لاح من بعيد من يعترض سير قوافل النمل البشرية، إنه هيكلُ إنسانٍ، أو مسمى إنسان، إنه حامد أبو العرق. انتصب حامد بطوله الفارع وسط جموع الناس التي تحولت إلى شارع يمشي بقدمين... «اتقدم واحنا وياك ثنين جيشين لصدام حسين» حامد يغني أغاني المعركة بانتشاء غريب وهو يمسك بزجاجة عرق أعرفها تمام المعرفة، لم تكن غريبة عني، فاسمها عرق زحلاوي طالما اشتريتها لأخي الشهيد ليطفئ نار ألمه عشية التحاقه بالجبهة... حامد يعترض الناس الهلوعة ويجبرها على أن ترمي أحذيتها أمامه صاغرة، لكي يكون الأمر عادلاً لمواساة من فقدوا أحذيتهم، أو حتى رؤوسهم في جبهات القتال!!! كان هناك من استجاب له، وبعضهم ضربه فتخلص منه، أو هرب منه متململًا كصابونة من يد رطبة بحركة كوميدية ساخرة... جمع حامدٌ كمية لا بأس بها من الأحذية، ركمها فوق بعضها فصارت مرتفعًا بلون أسود... ترنح قليلاً ودلق عليها زجاجة العرق، ارتشف الثمالة المتبقية في الزجاجة ثم رماها فوق كدس الأحذية... أخرج علبة كبريت باكستاني وأشعل النار فيها لترتفع كرة حمراء من النار المقدسة بالأحذية، ترنح أمامها وكاد أن يهوي فيها لولا أن

تداركته الناس بسحبه بطريقة إعجازية.

انطلق حامد يصرخ بالناس التي نسيت هروبها وانشغلت بمشاهدة فيلم قصير من بطولته: «انظروا... هكذا... هكذا انفجرت مخازن العتاد، دم... دو... دم... دووو»، يغيب في نوبة ضحك هستيري، يبتعد الناس عن ناره وهو ينظر إليها كيف تلتهم مخلفات الراحلين صوب اللاشيء.

إحدى النساء المُسِنّات تركت نعالها الأسود القيري عند حامد، فراحت تمشي حافية وهي تلعنه وتلعن من رضي بفعله، لذا راحت تردد وهي تتوجع من السير على بعض الحصى والفضلات التي أغرقت الشارع: «سيحاسب الريس المقصرين، إنهم خونة... الرفاق... وينهم الرفاق»، لم ير أحد من الناس المذعورة المبتلات بالقهر جموعَ الرفاق بزيهم الزيتوني، لقد تبخروا!!! هكذا هم في أيام المحنة، لا ترى لهم أي أثر، يفرون كجرذان، يختبئون كالخفافيش، وفي لحظة خارج أسوار المتوقع، وفي نهاية المشهد تراهم يقفون منتصبين بشواربهم المعقوفة، ونظراتهم الزائغة المرتابة، والاتهام بالخيانة تجده حاضرًا على ألسنتهم يقذفونه بوجه الجميع.

وعند مفترق طرق وفي أول عتبة في سوق النجارين وأمام جامع السوق عثرتُ على فردة حذاء جارنا الطفل ذي الخمسة أعوام مُلقاة على الأرض تختبئ بين أقدام الهاربين من الموت.. نعم... هي... هي... لستُ بغريب عنها، حفظتُ كل تفاصيلها من قبل... توقفتُ رافعًا الفردة من بين أقدام الناس فَلاحَني توبيخُ أبي كضربة كف على مؤخرة رأسي: «ماذا تفعل يا غبي؟ أترك كل شيء لا يخصك، الموت قريب منا»، رميتُ فردة الحذاء واصطنعت كأني أعالج حذائي، مشيت قليلاً مع أبي وغافلته وعدت سريعًا إليها... كان

هناك ولد بعمري أراد أن يرفعها من الأرض، دفعته وأخذتها منه: «إنها حذائي يوم كنت طفلاً بعمر الزهور»... رد عليَّ بخبث: «أين هي الفردة الثانية؟ هل أنت ذو الساق الوحيدة»... قال جملته تلك فابتلعته أمواج الناس مختفيًا في طياتها وهو يلوح بيده محتجًا... أتطلع في الحذاء أجده قد علق فيه غبار كثير، امسحه كالعادة بظاهر كمي وأدسه في يدي لابسًا إياه كالكف، أتطلع ذات اليمين وذات الشمال علني أعثر على الطفل أو على أمه، لكن هدرًا يذهب بحثي... توقف سَيْلُ توبيخ أبي لي... ما عدت أسمع كلماته وهي ترجوني حينًا وحينًا تعنفنَي أن أُعَجِّلَ بالمسير معهم.

أعلن جامع النجارين بمئذنته العالية اختفاء أبي ومن معه من العائلة، ما عدت أستدلُ لهم على طريق، أو موطئ قدم، يكاد يُغمى عليّ، أهيم بنظري وسط الجموع التي تحركني بلا إرادة مني، هنا تلتقي عيناي بعيني بنت جارنا وهي تبتسم في وجهي... ما الذي يجري؟... فقدت أهلي من جهة، ومن جهة أخرى رحمني اللّه بابتسامة من وجه من أحب، ابتسامة انتظرتها طويلاً... كثيرًا ما حاولتُ استمالة «زنوبة» إلا أنها طالما عبست في وجهي وأعطتني ظهرها... يا رباه أي سعادة أنا فيها رغم أنها أنانية غريبة مني، فوجع الناس يستطيل كحرائق الغابات ولكنه هروب مؤقت لي من ضجيج الأحزان المتراكمة... أجاور فتاتي بسير خارج نظام هدير الجموع وزحفهم وكأننا نسير في إحدى الغابات، حيث أرى الحشود كأشجار خضراء مليئة بالأثمار... أمسكها من يدها تستجيب لي طواعية...

- أرني ثديك!!

تضحك واضعة يدها الناعمة على فيها... أخجلُ من طلبي الجريء ونحن وسط الموت والبكاء والنحيب.

- أين أبي؟ أما رأيته؟.

- لا... لكن... أين اختفى شعركَ؟ أين ذهب؟.

- شعري؟... ذهب مع جموع الناس الذاهبة للمجهول.

حرّكت شفتيها دلالة عدم قناعتها بجوابي... أتحسس شعري أجده فعلاً قد تملص برخاوة من قمة رأسي.

- استدانه رجل أصلع، سيرده لي حينما أكبُر.

- كيف؟

- ابنه الصغير يمتلك شعرًا كثيفًا سيَفي بالدين لا تخافي!!!.

- وما هذه اللحية التي علت وجهك؟ بالأمس لم تكن هكذا؟

- سوء في التوزيع وغزارة في الإنتاج.

أغيبُ في نوبة تحليل الفكرة بفقدان الشعر خلال هذه الساعة المقيتة، كيف استغنى رأسي عن فروة كثيفة لشعر أسود فاحم؟ لطالما عانق كرة القدم المتسخة بطين السواقي المتقدمة وجه بيوتنا؟!! ومن أين ولِدَتْ تلك اللحية الكثة المطرزة ببعض الشيب؟!!... لا أصل إلى شيء مقنع إلا تأكيدًا لكلام أستاذي الخائف.

أتحسس يد فتاتي أجدني أعبث بالهواء، فهي الأخرى قد تملصت تاركة يدي باردة كالثلج في صيف جنوبي لاهب... خيبة حب أخرى تطال قلبي، يستسلم لها عويلي المدخر، تشاكسني لأجلها همهمات جموع الحيوانات الهاربة وهي تركض مع الناس حيث فَهِمَتْ اللعبة، فالذعر يلف الجميع بقماط سيء الربط، كلاب، قطط، جرذان، حمام، وحتى دجاج البيوت فر زاهدًا ببيضه تاركًا إياه طعامًا للموت الذي أعلن عن نفسه سيدًا للجميع... تزداد حدة أصوات الحيوانات معقبة على ما أنا فيه

«الخيبة في الحب سبب للالتحاق بجموع الهاربين، إنه انتحار من نوع آخر».

ويستمر سيرنا إلى المجهول برفقة جميع خلق الله، وكأنها سفينة نوح... بل قل شارع نوح فهو يحمل الجميع راجلين... لكن أين هو نوح لا أجده مع هذه الجموع المبتلات؟!!!.

ثمة حوارية أجبرتني بقسرية لأكون فضوليًا لمتابعتها، كانت بين طفل وجدته...

- جدتي؟ ليش الناس تموت هناك؟ أشوفهم بالتلفزيون جثث متفسخة.

- وهنا هم يقتلون الأطفال بعد جدتك وروحها...

«تهمس في خبايا روحها كمن ينفخ رماد أيامه»

- راح نموت مثلهم جدتي...»؟

يبدو أنّه سمع حسيس نارِ قلبِها.

- ليش ما تكلمونهم يبطلون هوايتهم بالقتل، متى تنتهي الحرب جدتي؟.

- تنهينا وما تنتهي!!!

التفَّ الطفل بعباءة جدته خائفًا لا يُرى منه سوى وجهه الأسمر... فكرة الحرب فكرة غبية، من أوجدها لا تروق له الحياة، كل العراقيين كانوا يتكلمون متسائلين في سرهم من رمى عود ثقابه فوق نعالات حياتنا فأحرقنا معها في حفلة حرائق تنكرية؟ من؟ أيتها الشمس، أيتها الأرض المالحة، من خطط لهذه العويل الناشب أظافره في فيافي الروح؟ من ؟ لا جواب سوى هيمنة الهذيان وهو يدعو الحياة أن ترتجف بنشيد لحّنَتْهُ القذائف.

بعدما أعلنتُ عجزي عن العثور على أهلي وسط الجموع

المتدفقة، أرخى الليل ستائره وحل الظلام سريعًا قابله إعلان أكداس الذخيرة بتوقف انفجاراتها وتحليها بالهدوء... كفت أفاعي الهاربين عن الحركة في اندفاعها نحو المجهول حتى اختفى آخر شخص قد غرق في أعماق الشوارع ساعة تقديم الذخيرة أغلظَ الأيْمانِ بعدم وجود صاروخ معد للانفجار لاحقًا.

راودتني فكرة لا أعرف مصدرها، أن أهلي ما زالوا أحياء، ولا بد أنهم قد عادوا لبيتنا بعد هذا الهدوء النسبي، لذلك عزمت أمري على العودة سريعًا سالكًا نفس الطريق الذي أتينا منه... سيد الموقف أصوات الحشرات ونباح الكلاب التي عادت مبكرًا لهوايتها في العزف النباحي... أبواب البيوت مُشرعة على مصراعيها... يبدو أن لا عودة حتى صباح اليوم التالي... ثمة رجال في كل مفترق دربونة بعدد اثنين أو ثلاثة يعتمرون اليشماغ الأحمر، يقفون قبالة بعضهم بحديث فيه كل أنواع الكذب في تحليل ما حدث، أستدلُ عليهم وسط الظلام من توهج سجائرهم، أها، إنهم إخواننا الرفاق الحزبيون، ها هم قد ظهروا بعد غياب طويل.

أصِلُ البيت، أجدُ الباب يتنفس هواءً نقيًا فاغرًا فمه وهو يستقبل القادمين من صحراء العطش... أنتبه لحذاء الطفل، ما زال في يدي، أنتزعه وأضعه جانبًا... أُسْرِعُ باتجاه طيور أخي الصغير، وفي أول سلمة نحو سطح بيتنا أتذكر أنه حينما كان يراقب الناس الهاربة من أعلى السطح قد أطلقها خوفًا عليها فأعطاها الإذن بالهجرة بعيدًا ريثما ينتهي الانفجار... أجولُ باحثًا في بيت الطيور عن أي أثر لها لكن المكان يخبرني: «لا تتعب نفسك الطيور ذهبت مع الريح»... يبدو أنها كانت تتوقع الأسوأ لذا آثرت الرحيل النهائي كالفرح العراقي الذي غادرنا ليكون مشروعًا مؤجلاً حتى تصيح الساعة.

وأنـا أواصـل بحثي عـن الطيور تعثرت بفراشـي الذي نمت عليـه ليلـة البارحة حيـث بقي هناك دون أن تجمعـه أمي أو زوجة أخي اللائي اعتدنا تركه في العراء لتأخري في الاستيقاظ... هنا وجدتها فرصة لأرمي نفسي في أحضانه طلبًا للراحة بعد يوم مرهق ممل... اضطجعت ورحت أتطلع غائبًا في تفاصيل السـماء معاتبًا إياهـا على ما نحن فيه... تناهى إلى سـمعي أصوات أرعبتني أتت كصرير مزلاج بابٍ صدئ بين رجلين أحدهما بصوت منكسـر وآخر بصوت أجَشّ مهيب...

- اين كنت ساعة الانفجار؟

- كنت أضاجع زوجتي.

- كنت مُسْتمتعًا.. ها؟

- نعم! أليست زوجتي!

- متى آخر مَرّة ضاجعتها؟

- بعد غيابٍ لشهرين، كانت في حالة نفاس، فقد رزقنا اللّه بمولود أسميناه صدام.

- اخرس... لا يمكن أن يكون الريس ابن للخونة...

«سمعت صُراخ الرجل مصحوبًا بمؤثر شواء»:

- ضاجعتَ زوجتَك بعد غياب شهرين؟.

- نعم سـيدي؟ لكنْ أحلف لـك بكل مقدس أنني لا دخل لي في تفجير مخازن العتاد.

- أعرف، بالتأكيد أعرف، لكن الواقع يخبرني بأن هذه هي المضاجعة الأخيرة لكما، لأنك ستذهب إلى الجحيم...

ضَجّـت المدينـة بطلقـات ناريـة راحت تلعلع في السـماء، شاهدتها تحلّق مع النجوم فتسقط معها كبرشوت تعلّق فيه رجل

مظلي، حتى تخلت السماء عن جميع نجومها... كثرة الطلقات وكثافتها أوحت لي بأنها كانت من نصيب العديد من مسؤولي مخازن العتاد الذي كانوا مشغولين عن واجبهم بمضاجعة زوجاتهم وربما حبيباتهم وربما كانوا مشغولين بممارسة العادة السرية على صورة لسعاد حسني أو ميرفت أمين، كل حسب وضعه العائلي، أو ربما كانوا مشغولين بعلاج جروحهم يوم هدرت كرامتهم على أعتاب المواطنة الزائفة.

الخوف يعتمر رأسي كقبعة مكسيكية، يجلدني بقرصات من أيادٍ خفية، أشعر بفراشي بحر قمل ينهشني، أتجاوز سلالم البيت بقفزة يائس احترقَ جسده فرمى بنفسه في بحر من نار أشد وأكبر... أحتضنُ الشارع بسيل دموع أحر من الجمر، كرة متدحرجة تتجه صوبي، تقود خلفها كراتٍ أخرى لا تشبهها لكنها تتدحرج بإيقاع واحد، تضربني بقوة في كل نواحي جسدي، تستحثني للاستيقاظ... الكراتُ بلا هواء، تريد من ينفخها... ألتقط حذاء الطفل وأخرج غارقًا في فضاء دربونتا... الكرات تقودني خلال الشوارع التي قَمَعَتْ ناسها إلا كومة لحم تمددت في الجوار، يتسرب منها خيط دخان يتلوى كأفعى يحمل صوتَ كركرة طفل اخترقت مسامات روحي، وقبل أن أصل كومة اللحم، تدحرجت كرةٌ لي معها تاريخ لا يُنسى، عرفتها سريعًا، كانت مختبئة خلف ذاتها، قادتني من يدي باتجاه هذا الشيء الهامد الذي بدا يتضح شيئًا فشيئًا وهي تقول «امشي بسرعة عندي لك مفاجئة»!!! أمتنع خائفًا: «لن أأتي معك» توجه لي عدة صفعات بضربات متتالية «قلت لك امشي بسرعة عندي لك مفاجئة»... ماذا أرى؟ كأن رصاصة اخترقت قلبي الضعيف، إنه جارنا الطفل الصغير يرقد ممدًا في الشارع بفردة حذاء واحدة، وخيط دم يحفر الشارع ينساب من رأسه كنهر يلتقي عند نقطة

اجتمـاع دجلة والفرات ليذهـب بعيدًا حيث بيـادر الزهور... فردة الحـذاء الأخـرى لا زالـت في يدي، أحشـرها في قـدم الصغير، أحثه أن يسـتيقظ لكن بلا جدوى... وفجأة اسـتدار إلى الناحية الأخرى دون أن ينظر في وجهي وهو يقول: «دعني، أريد أن أنام، فقـد تعبت من مداعبة الكرة، كما إنها لم تعد صالحة للركل فقد ثقبتها قذيفة أحدهم فهرب هواءها مع الناس الهاربة، واذهب أنـت أيضًا ودعني أنـام»... ألتفتُ إلى الكرة، رحت أنفخها بهواء رئتـيَّ، وأركلها باتجـاه العالم النائم عن صراخنا علّهُ يسـتيقظ ليُترجم فيض أنينِنا.

***

آيبولا

اختلسَ المعلم «حميد» نظرة فضولية بطرفٍ خفي من خلال نظاراته السميكة، وهو يقف منتصبًا في ساحة المدرسة مراقبًا التلاميذ في استراحةٍ ما بين الدروس، نظرة فيها شيء من الرجاء والتوسل المشوب بالعذاب والألم لتلميذ بدين ذي وجهٍ ممتلئ باللحم، وملابسٍ جميلةٍ غاليةِ الثمن، وهو يخرج سندويشة من حقيبة كتبه تفوح منها رائحة شاورمة، تعلوها سَلَطَةٌ تسرُّ الناظرين.

شعر حميد بآلام تنهش بطنه، كاد أن يتقيأ على إثرها وهو يرمق هذا الطفل المرفَّه شزرًا... رفع نظارته السميكة ومسح عينيه لمداراة خجله، وأشاح بوجهه لكبح جماح روحه المعذبة، لكنه سرعان ما واصل النظر مرة أخرى متحرشًا بالطفل بفضول الجائعين محرضًا إياه على أن يمارس دوره الذوقي ويدعوه مترحمًا عليه بلقمة ضئيلة من هذه السندويشة لسد رمقه، ممنيًا نفسه بأن يعقبها بشاي مهيل مدفوع الثمن مسبقًا من نثرية المعلمين من يد فراش المدرسة «أبي عباس»... كل ذلك من أجل إخماد صرخات معدته الجائرة وهي تلوث الفضاء بسمفونية نشاز.

أثارت تحديقة المعلم الشبقة بالسندويشة اللذيذة انتباه الطفل ليرفع بصره بوجه حميد الممتقع ولسانه اللائب فوق شفتيه الآيلتين إلى لون القهوة من أثر سكائر اللف ويصفعه بنظرة باردة كالثلج أشعلت براكينًا تغلي في نفس حميد وذهبت بتمنياته أدراج الرياح... واصل الطفل ذبح معلمه بسكين عمياء دون شفقة وهو يلتهم السندويشة باستمتاع عجيب حفز غدد فم المعلم

على الانفجار لعابًا استحال كخيمة تلفعت بها ساحة المدرسة المتربة... لكن الطفل توقف عن الأكل فجأة مما أنعش أسارير معلمه وهو يبلع ريقه المتيبس، ظنًا منه أن المسرحية قد انتهت وأن الطفل وصل كفايته من السادية والتلذذ بتعذيبه، فشبع وامتلأت معدته المطاطية وسيمرر بيده الناعمة كالحرير نصف السندويشة الآخر إلى يده الخشنة كحجر تنظيف كعب القدم لدى عجائز الزمن الغابر، لكن الطفل نظر بتقطيبة مميّزة إلى أستاذه وهو يشاهد تفاحة آدم تعلو وتنخفض منتفخة في بلعومه بحركات ميكانيكية مجنونة، وإيغالاً بساديته وضع السندويشة داخل حقيبته وهو يلف كيس النايلون حولها بإحكام وكأنه فهم تطلعات حميد العدوانية وأخذ احتياطاته أمام تهوره بسرقة نصف السندويشة المتبقي.

هز حميد رأسه آسفًا، وانفجر ببكاء مر لم يحرك شعرة في مفرق الطفل، اعترته نوبة جنون جعلته يضغط على زر جرس المنبه قبل موعده إيذانًا بالعودة للصفوف، أثار صوت الجرس امتعاضًا لدى الأطفال الذين لم يأخذوا كفايتهم من اللعب والأكل مما دعاهم للتأفف والعودة متثاقلين لينهرهم حميد بركلات في الهواء حاثًا إياهم بالتعجيل على الانصراف لصفوفهم... دب خوف كوميدي في قلوبهم، دعاهم للركض سريعًا مع ضحكات ساخرة يقودهم تدافع فوضوي، ابتلعتهم الصفوف كنمل أحس بخطر ما... لكن الطفل البدين بقي متسمرًا دون الجميع أمام حميد ممسكًا بحقيبته بقوة على صدره وكأن قوة غيبية استحوذت عليه قد شلت حركته، انتفض حميد صارخًا بالطفل البدين:

- أدخل للصف ابن الطرمبة.

مع ركلة على مؤخرته اهتز لها ردفاه، هرول التلميذ سريعًا

وهو يمسك بطفل آخر يشاركه الهروب يبدو أنه أكثر رشاقة منه، وكأنه كان يبحث عن وسيلة نقل سريعة... وعندما وصل باب الصف، توقف متذكرًا شيئًا عزيزًا فقده هناك في زحمة تدافع التلاميذ، عاد سريعًا وبكل صلافة يتنقل بين أقدام المهرولين بحثًا عن حقيبته، لاحت له متكومة في منتصف المسافة ما بينه وبين حميد وهو يزبد ويرعد، أسرعَ بالوصول عندها، ولما وجدها لم تُفتح ولم تتعرض للعبث بما حوته من سندويشة كان قد أكلَ نصفها، حينها تنفس الصعداء، حاول سحبها من الحزام الجلدي المخصص لتعليقها على الكتف لكنها نشبت مخالبها بقوة في الأرض ملتصقة به، فتح عينيه باتساع المتعجب، سحبها مرة أخرى، لم تستجب له، تمعن بها مليًّا، وجد قدمًا كبيرة تضغط بإحكام على طرفها، قدم بحذاء متهرئ قد استحال خرقة بلون باهت حيث لم تمر به سحابة طلاء منذ خروجه من المصنع، تعلو هذا الحذاء أذيال بنطلون قد أكلها الاحتكاك مليًا بالأرض لكثرة المشي، تذكر الطفل كتاب الإسلامية الذي تكوّم غافيًا في طيات الحقيبة كاد أن يصرخ بصاحب القدم الكبيرة الذي دنس شيئًا اعتاد أن يرى أباه يقبله واضعًا إياه على جبهته، لكنه آثر الصمت حتى لا تسحقه هذه القدم كما سحقت حقيبته، رفع رأسه في محاولة منه لمعرفة صاحب هذه القدم، وجد حميدًا وهو ينتصب واقفًا لكن ليس كجبل أشم بل كخيمة وجع يعلوها رأس صبغته الأيام بالأبيض الرمادي.

ليومين مضيّن لم يدخل شيئًا من الطعام في بطن حميد وزوجته (سنية) التي تكبره بخمسة أعوام والتي تزوجها بعد أن أغرته بوعود كاذبة بأنها تملك مالاً وفيرًا سيغيّر حياته وسيؤهله ذلك بترك التعليم وراتبه المتواضع والذي لا يتجاوز سعر طبقة بيض وسيصبح إنسانًا محترمًا وسط مجتمع سِمَته المادة، وشعاره

من لا يملك فلسًا لا يساوي فلسًا.

فكّر كثيرًا بجدوى هذا الاقتران فوجد أنه سيوقف نزف أفواه الناس بالسخرية منه والكف عن وصفه بعد ذلك بالجائع والفقير والمعدم وهي صفات اقترنت بالمعلم الشريف في تسعينيات القرن الماضي.

وفي محاولة منه لكسر سلطة الجوع الماكثة في أعماقه تطلع بإمعان إلى مكتبته العامرة بالكتب فارتسمت أمام عينيه غزالة مشوية تتقلب راقصة فوق نار هادئة، زم على شفتيه متأسفًا وأزاح هذه الصورة السخيفة عن ذهنه وهو يقول: «هو السقوط بعينه، مكتبتك شرفك فمن لا مكتبة له لا شرف».

سخر من مقولته الأخيرة وهو يتحسس بطنه فالجوع يأكلهم والرجاء بمن يقدم لهم يد المساعدة تلاشى نهائيًا، لأن الحال من بعضه، الجميع يُجلد بيد الزمن القاسية وأنظمة قاهرة متسلطة... ماذا يفعل؟ هل يساوم على نجاح الطلاب، ويبتزهم، ويبتز ذويهم، ويأخذ الرشا منهم، ليرمم حياته المتضعضعة؟ هل يمسك سكينًا ويعترض طريق المارة لأخذ ما حوته جيوبهم من أموال؟ هل يشارك مديره السرقة وبيع القرطاسية المسربة من حصص التلاميذ؟ هل؟... وهل؟... وهل... شريط سينمي مر على عينيه أفقده صوابه بأدلجة شيطان بفم نتن... غرق حتى يافوخه الرخو بتفكير سخيف وحلول جميعها تؤدي إلى فقدانه مبادئه وظلم أخيه الإنسان والوقوع في شبكة الشرطة أخيرًا، وهذا معناه القضاء على حياته وحياة زوجته، زوجته التي بعد أن اكتشف كذبها بالأملاك المزعومة أصبحت ناعمة جدًا، عبدة مطيعة لملكها المُفلس، لا تعصي له أمرًا، وخاصة عندما تبين لها وله أنها غير قادرة على الانجاب، وهذه مشكلة أخرى تتكدس فوق ركامٍ من المآسي تضاف

لقائمة مشاكل حميد وسنية الطويلة من الحيف والظلم والقهر ليعيشا طيلة عقد وسط ركام من الأحلام بطفل يرمم حياتهم بكركرة تملأ بيتهم بشيء من الفرح، لكنها أحلام أبت أن تتحقق فذهبت مع دخان القطارات التي شهدت تنقلاتهم وارتيادهم عيادات الأطباء وسفر شاق بين العاصمة ومدينتهم القابعة في أقصى الجنوب.

وفيما هو يضرب أخماسًا بأسداس مفكرًا بما آل إليه وضعه المعيشي، تلوى متألمًا، لاعنًا الجوع ومصدر الشقاء المستديم المتمثل بالحكومات التي تصر وبكل وقاحة على إذلال المعلم، ولا يفوته أن يمر في طريقِ لعناته بوظيفة إنسانية تربوية لم تحفظ له كرامة بأدنى درجاتها، وكلما أتى طيف جهة قاهرة لإنسانيته ارتفعت حدة لعناته بصوت عالي حتى كان آخر الملعونين مدير مدرسته، وراح يعدد سيئاته واحدة بعد الأخرى بسباب وشتيمة حتى قطع عليه شهيته في اطلاق اللعنات صوت طرقات شديدة على باب داره، لكنه ولشدة شعوره بالإعياء والسلبية المقيتة لم ينهض، رافضًا الاستجابة لهذا الطرق وخاصة بعد انقطاع القاصي والداني عن زيارته والاطمئنان عليه، وهي حالة عامة اعترت أوصال المجتمع في نكران الآخر، هذا المجتمع الذاهب بعيدًا في الانكفاء والعزلة.

- الباب!!!

تطلع حميد بوجه سنية متسائلاً مع إشارة بإغماض عينه اليسرى يحثها على استفهام مصدر الطرق... نهضت مسرعة باتجاه الباب وكاد ارتباكها أن يسقطها على وجهها لولا تمسكها بالأريكة الوحيدة المتوسطة غرفة الاستقبال، هنيهات مرت على حميد كرشق الحصى على نوافذ روحه، عادت سنية على

إثرها سريعًا وهي تقول:

- جبار مكافحة يقف عند الباب.

- ماذا يريد؟

- لا أعلم.

- قولي له...

قبل أن يتم حميد جملته بالاعتذار بعدم تواجده الآن، فاجئه جبار منتصبًا كوحش أسطوري وسط غرفة الاستقبال برأس يغازل السقف ووجه مشوه إثر ضربات سكين طائشة وتخميشة أظافر حادة، تشويه أتى نتيجة طبيعية للجو العام الذي يكتنف سيرة هذا الشاب المنحرف وخوضه معاركًا عديدة بمواجهة أقرانه من أولاد الشوارع بعد أن فشل فشلاً ذريعًا في المدرسة فتسرب سريعًا خارج أسوارها وهو يقف عند أعتاب الصف الرابع الابتدائي.

- أستاذ حميد أعْلَمُ جيدًا بما تمر به من عوز وفاقه...

قال جبار جملته الاستفزازية الوقحة وهو يحرك يديه بطريقة الشقاوات المعروفة مع هزة رأس توحي بالفطنة والقوة وكأنه وضع يدًا من حديد على كتف معلمه السابق مانعًا إياه من النهوض مغلّقًا أبواب المعارضة ولو بكلمة تأتي على استحياء، كاد حميد أن يبتلع لسانه خوفًا وهلعًا وهو يرى أشد مجرم عرفته المنطقة ينتصب كعمود كهرباء يهدد العالم بصعقةٍ تَحرق الأخضر واليابس.

كان جبار مكافحة منذ طفولته شريرًا لا يقيم وزنًا لكبير أو صغير، وسُمي بهذا الاسم نتيجة لصراعه المستمر مع مكافحة الإجرام في المدينة عندما كان يرافق أمه (علاية) وهي تمتطي عربة حصان تجوب بها القطاعات السكنية لمدينتهم البائسة وما

جاورها من مدن الجنوب الغافية على جانبي دجلة وذلك لممارسة مهنتها الوحيدة في بيع (العتيق) التي تدر عليها أموالاً لا بأس بها، حيث إن عملها يعتمد على تبديل الألمنيوم والنحاس والطحين وبطاريات السيارات بمبلغ من المال وأحيانا بمواد مستهلكة تصلح لترميم المطبخ العراقي.

جبار مكافحة كان يمثل حالة اجتماعية انتشرت وبكثافة في جسد المجتمع كمرض عضّال تداعت لها القيم والأعراف والمبادئ ساقطة متلاشية، مفاد هذه الحالة شعور بالكراهية والعداء تلبّس جبار ومن كان يخطو خطواته المنحرفة، عِداء لكل شيء خارج نظام الموائمة معه، نظرًا لفشله في الدراسة وهو يرى رفاقه الصبيان يتدرجون بسرعة البرق متفوقين في دراستهم، فضلا عن سمعة ومعيشة دنيئة تمثل انحدارًا أخلاقيًا يمقته المجتمع مما جعله يعيش الكراهية للمجتمع المثقف المحترم وهو ما ولد قطيعة عامة بين المثقف والجاهل بطبقية مريرة بشكل عام تم تأشيرها في سيسيولوجيا الباحثين، لذا أتت أفعال جبار برمتها انتقامية بكل ما تحمل الكلمة من معنى لكنه كان يقف بتأمل مع شخصية معلمه حميد حيث يجد فيه نوعًا من التلاقح المعيشي للفقر الذي يعيشه والعوز المستمر القابض على خناقه وهو ما كان سيرة قاهرة لجبار وأمه وأبيه في سالف الأيام، ولا يخفى أن (علاية) كانت بصباها تهيم بحميد شغوفة به، تختلق المناسبات لتعبر عن ضياعها في صحراء عيونه التي تغطيها نظارات سميكة تسمى اجتماعيًا (كعب استكان) لكنه كان ينظر لها بسخرية مقيتة حيث كان ينعتها: بالمتخلفة، وبإصرار العاشقين بقيت تنظر له بعين الرضا والحب، وهذا الوله المستشري من قبلها جعلها تذكره بخير أمام ابنها بمناسبة أو عداها، وكانت ترجوه للتعامل مع حميد بطريقة أخرى غير التي

يتبعها مع الناس... لكنه برغم هذه الوصايا كان وكما يقولون يكسر ويجبر في تعامله مع أستاذه وعشيق أمه بطرق متناقضة يؤوّلها حميد بتأثير المسكرات والمخدرات التي يتعاطاها جبار ناسيًا بتعمد أو بغفلة كثيف مشاعر (علاية) نحوه في أن يعود لها هذا التناقض الفظيع الماثل في شخصية ولدها.

في السنوات القليلة الماضية تعرضت علاية لجلطة قلبية نتيجة لإدمانها على التدخين الذي لازمها منذ مقتل زوجها في حرب عشائرية على خلفية سرقة حمار، لا حبًا وشغفًا به فهي لا تعيش التناقض والازدواجية بين حميد وزوجها، إنما شعورها بالوحدة في صراع أنثوي مع الحياة القاسية جعلها تندب حظها العاثر، لا فزاعة أرضها البور باقية إشارة لزوجها ولا فتاها الأوحد حميد ذا النظارات السميكة رطب إسماعها ولو لمرة واحدة بكلمة حب شفافة، لذا والحال بهذا السوء فضلاً عن تقدمها السريع بالعمر دفع بها لتعتمد على ولدها بمواصلة دربها في مقارعة الزمن ليكون عند حسن ظنها، وهذا ما كان بالفعل ومنذ تباشير انخراطه الأول وحيدًا بالسفر والبيع والشراء تفوق بمهنته المنكرة لدى العامة لسوء سمعتها ودناءة أخلاق أصحابها، نعم تفوق على أمه بأشواط عديدة، تفوقٌ عزاه الجميع لخوف الناس قبضته وشره المستطير، وأمام هذا الانزياح الشرير كان زبونًا دائمًا للسجن بجرائم مختلفة بين الحين والآخر، زنا، لواط، سرقة، مشاجرات، هذه الجرائم التي يعتبرها البعض بطولات تستحق التصفيق، نتيجة لزمن قاهر استحوذ على الجميع بشيوع لغة المادة والقوة، ومن امتلكهما معًا فهو القادر المقتدر الذي يعلو رقاب الجميع بسيفه المصقول...

- أستاذ حميد، الفرج يقف بين يديك الآن، قف لاستقباله.

قـال جبار وهو يمسـح على بطنه براحـة يده اليمنى بطريقة كانت سـائدة في زمن شيوع المتسـكعين، وبنفس المنتصرين الفارغيـن وهـو يفلت من يـده الأخرى على بلاط الأرض كيسًـا كبيرًا متخمًا بالحبوب واللحم والفواكه والخبز، نكس حميد رأسـه لهذا المشـهد بانكسار كمن سـقط من شاهق فتدحرج ككـرة مطاطيـة حتى قاع واد سـحيق، عنَّ له خاطـرٌ أن جبارًا مهما استطال في عالم الإجرام والرذيلة يبقى تلميذًا له ولن تصدر منه إسـاءة بالغة، فاستعاد شـيئًا من صلابته وابتلع ريقه بصعوبة وندت عن فمه كلمة أتت كتهويمة يد بعثرت دخان سيجارة كان يحجب صورة الكيس المنتفخ بالأغذية.

- وما ثمن هذا الفرج؟

اهتـزازات متواصلـة تطـال أجسـاد ركاب القطار الذاهب باتجـاه العاصمـة تراقصت لها أكتافهم وكأنهم سـكارى وما هم بسكارى، غارقين في غيبوبة محدقين بالفراغ بنقطة وهمية تتلألأ أمامهم تختفي وتعود بتتابعية مسكرة وكأنها ذبابة مراهقة تحتـال علـى عيونهم بطيران مسـتفز، كلٌ مشـغول عن صاحبه بهم يعتلي قلبه، تراهم كالموتى السـائرين إلى مجهول لا ينتمي لهم، ومن بين مجموعة الركاب المحتشدين بتكدس فوضوي، أطل حميد بنظاراته السميكة وهو يجلس قرب النافذة الزجاجية المغلقة بإحكام وهو يتابع هروب المدينة عن ناظريه ليختفي كل شـيء في الدخان الماشـي عكس سـير القطار إلا صورة (جبار مكافحة) وهي تظهر وتختفي بضبابية ترتسم على زجاج النافذة المتسـخ بآثار الصبية المشاكسـين وكأنهـا صفعات تنفعل مع اهتزازات الركاب على خد (جبار مكافحة).

- هل يُعقل هذا؟... أنا حميد المعلم العصامي صاحب المبادئ

والقيم... صاحب النفس الأبية... أنزل لهذا المستوى من السخف والرخص مستجيبًا لإغراءات (جبار) المنحرف وأسافر بمئتي كيلو من النحاس معرضًا تاريخ التربية والتعليم لجور القانون... بماذا سيتحدث الناس عني لو تشاطر أحدهم وألقى القبض عليَّ لحيازتي موادًا عسكرية؟... نعم كعوب أغلفة قذائف الدبابات... هي مخلفات عسكرية، ومن المؤكد ستكون نهاية حتمية ترتسم أحداثها عند حبل مفتول لمشنقة مستهترة لا تعترف بالمعلمين، بماذا أدافع عن نفسي.. هل أقول لهم (جبار مكافحة) هو من أرسلني بهذه البضاعة المزجاة لأنه ورقة محترقة بالنسبة إليكم ومُراقب أيضًا من أجهزتكم الأمنية وبما أنني محترم لديكم ومعلم معروف بالقيم والأخلاق لذلك اعتمد عليّ، أي سفاهة أحمل... اللعنة!!! لم أكن مُوفقًا بالمرة لرضوخي الساذج لطلبات جبار بنقل هذه البضاعة إلى العاصمة وبيعها هناك... نعم المبلغ كبير ومغري يسيل له لعاب أيّ نبي، لكن... اللعنة عليك يا سنية... ملعون هو الجوع، ملعون من يمشي على قدمين في أرض بور، ملعون من يسمع نصائح امرأة خرفة.

مونولوج داخلي اعتمل في صدر حميد نفث على إثره دخان سيجارته بثورة مقهور أزاح بها صورة جبار الساخرة عن زجاج النافذة راسمًا على صفحتها جملة اعتراضات عزفت عليها كنقار خشب، لتتكثف أصوات مبهمة تصرخ في قحفة رأسه تحثه على الهروب، إلى أين؟ لا يعلم! ربما الاختباء في جبة أحد ركاب القطار سيمثل حلاً، وإن كان هو أحد هؤلاء الركاب.

هز رأسه بعدة اتجاهات فراحت رقبته تعزف أنغامًا اخترقت بعض الصمت الذي يلف من جاوره من المسافرين، كانت حركة انفعالية أراد التخلص بها من هواجسه الغير مبررة، لات ساعة مندم يا حميد، قد تم الأمر، وحصلت الموافقة، ونُقلت البضاعة،

وستصل بعد قليل إلى محطة القطار وتبيع بضاعتك وتعود سريعًا ، إذن ما نفع هذا الاسترجاع الملوث بالندم لأحداث حُكم عليها بالانتماء لحزب الماضي الماشي بسرعة صاروخ، لذا مد حميد يده إلى كيس بلاستيكي صغير دست فيه سنية لفة من اللحم والبطاطا وبعض الخيار كان قد جلبها لهم سعيد بصحبة مواد أخرى كفاتح شهية لعمل خارج نطاق القانون... كان يريد بهذه اللفة قتل ذاكرته والدفع بنفسه حيث الرضا والقبول بما آلت إليه حياته... راح يلتهم اللفة وما حوته من حشوة لذيذة بشراهة ، وكأنه يريد أن يلعن الجوع القادم في طيات المبادئ والذل المتربع فوق ناطحة سحاب القيم، يريد أن يسحقه بطواحنه ويقطعه بأنيابه حتى إذا ما استحال فضلات قذرة استراح استراحةُ مبرئ الذمة من كل إثم، هو شعور بات يخيم على توجهاته بتصفية حساباته مع موروثات أخلاقية كادت أن تقضي عليه لولا رحمة (جبار مكافحة).

افترس حميد لفته بسرعة ، تلمظ بمسمى أسنانه المتناثرة بعدد أصابع اليد الواحدة ، مسح فمه بيده المجردة ، شعر بالعطش ، نهض ليبحث عن ماء في أرجاء القطار ، أحس بيد قوية تقعده من جديد ، استجاب لها مستسلمًا ، مما لفت انتباه الجميع من بينهم امرأة كانت تجلس بالقرب منه مع أطفالها الذين كانوا يراقبونه بتلذذ وهو يلتهم اللفة. رفع رأسه باتجاه صاحب اليد الفولاذية ، وجده شاب بشوارب كثة تنحدر متجاوزة فمه حتى نهاية حنكه... تفرس به قليلاً ، شعر بروحه تسقط في بئر عميق، مد يده لالتقاطها ، كانت قصيرة لا تصل إليها ، تركها يائسًا تواصل سقوطها وهي ترمقه بعين العتب، تيقن عندها أن نهاية الجوع لا بد أن تكون درامية حافلة بانقطاع النفس.

- حجي ... انهض معي.

المرأة المنقبة تتابع حميد مع رجل الانضباط العسكري وهو يقوده بصحبة انضباط آخر باتجاه نهاية القطار حيث عربة البضائع الثقيلة، دست المرأة يدها الناعمة في الكيس البلاستيكي خاصة حميد، لم تعثر على شيء سوى بضع قطع من الخيار وآثار قطرات عمبة ورائحة كريهة تثير الشفقة على حميد لكنها أفرغت ما وجدته في يدها وأطعمته لصغيريها وهما يحدقان مليًا بالممر وكأنهم يناجون السماء بعودة هذا الرجل المسكين سالمًا الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف كنوع من الشكر.

- هل هذا النحاس لك؟

أشار الانضباط إلى أكياس النحاس بإصبع الاتهام. انهار حميد ذائبًا كقطعة زبدة متسربًا من بين أيدي رجال الانضباط... كل شيء يتحرك بدوائر مُخَدّرة لا يعي منها شيئًا... الصمت لغة بليغة مارستها روح حميد، اللسان مشلول والجسد متصلب كتمثال الرصافي، كل شيء توقف حتى دمه عجز عن الجريان في العروق... حميد كالميت فقد التواصل مع الدنيا... استيقظ على صرخة الانضباط الوقحة:

- هل أنت حمار؟ أطرش؟ ألا تسمع؟ ... أجب ... هذا النحاس لك؟

دمعة تتلوى كلهيب جهنمي انحدرت من تحت نظّاراته السميكة حفرت لها أخدودًا وهي تتدحرج حتى نهاية ذقنه لترمي نفسها منتحرة على أرض العربة المتسخة بآثار أقدام لم ترفعها الأيام...

واصل الانضباط حقارته وكأنه يثأر لنفسه لجريمة ارتكبها حميد بقتل أبيه أو أخيه، ربما هو القهر وعقده الذي يعيشه هذا

الانضباط وغيره، شعور بالدونية، كونه يعمل في سلك لا تجيده حتى الحيوانات المفترسة لدناءته وحقارته... الانضباط يرفع يده الخشنة باتجاه وجه حميد الغائب بعيدًا عند وجع يأكل منسأة روحه...

- قف... غبي... أما ترى شيبته؟.

اقتحم العربة ضابط برتبة ملازم وهو يزبد ويرعد وعصاه العسكرية الحمراء تحجز يد الانضباط، مانعة نزولها على خد حميد الذي وقف دون حراك لا يعي ما يجري أمامه وكأن الأمر لا يعنيه.

- ثق كنتُ كاسرًا يدك لو أنها هوت على خد هذا المعلم الشريف.

وقف الملازم بمواجهة حميد وترك له الفرصة ليتفرس بملامحه قليلاً... رأف لحاله كثيرًا، كادت أن تفر من عينه دمعة لأجل هذا الكيان الإنساني المتحطم والماثل أمامه، لكنه حبسها مرغمًا خوفًا أن تهتز صورته لدى فريق عمله الانضباطي المكلف ببعض المهام الأمنية في هذا القطار.

- عرفتني أستاذ حميد؟

هز حميد رأسه بالنفي...

- أنا سعيد ابن حجي زامل البقال...

حاول حميد أن يتذكره، تفرّس بملامحه طويلاً، لكن محاولاته باءت بالفشل، كرر هز رأسه نافيًا معرفته.

- كنت طالبًا عندك في مدرسة أم المؤمنين عائشة...أما تتذكرني؟.

نزل حميد من سيارة التاكسي خائر القوى نازف القلب

فاقد الإحساس بكرامته وإنسانيته، وطئت قدماه أرض مدينته التي ما عادت تعرفه، تنكرت له، أشاحت بحضنها عن جسده، لم تستقبله بابتسامتها كالعادة، فهو لم يعد ذاك الحميد الذي تعرف، تلوّث كثيرًا عن قبل... كان في استقباله زعيمه الروحي (جبار مكافحة) الذي كان على عجلة من أمره، تقاسم معه مبلغ البضاعة دون ان يناقشه، كيف؟، ولمن؟، وبكم باعها؟. كل شيء تم بسرعة وكأنه يريد التخلص سريعًا من نجاسة لاحت ثيابه، عجلة (جبار) الغير مبررة أدهشت حميد الذي ما زال ساهمًا مخدرًا... المونولوج الداخلي لدى حميد عاود الظهور للواجهة بأصوات مختلطة تئز أزيز الرصاص في رأسه، شجار رجل وزوجته، أصوات أطفال تلعب الكرة، تلاميذه في الصف الأول وهم يرددون دار دور، باعة النحاس ومساومتهم، الانضباط العسكري يعتذر من الملازم بأغنية وطنية حربية... كل شيء يأخذ بالاستطالة بفوضى لا يعرف مصدرها يصرخ على إثرها وكأنه تخلص من حمل بالغ الثقل قد كسر ظهره...

- ثمة شيء ينتشلني بقوة من واقعي وكأني في حوض تيزاب.

تحسس حميد جيبه المثخن بالنقود والتي تفوق راتبه المتواضع بخمس مرات، وثمة ارتياح تشظى في قلبه جعله يغير وجهته المعتادة نحو بيته إلى مكان لاحتساء الخمر يرمم به بعض ما فقده من راحة بال ومحاولة يائسة منه لنسيان فصول الرعب والخوف التي لازمت رحلته التي فاقت أحداثها دراميًا مغامرات السندباد وكولمبس وأنديانا جونز.

نظر حميد إلى ساعته التي يعتبرها الشيء الوحيد الذي بقي محافظًا على تاريخه، وجد الوقت متأخرًا جدًا وهو يقف وسط الشارع الترابي أمام محل المشروبات بعد انقضاء فصل

المتعـة الكاذبة التي تحصل عليهـا بصحبة زجاجة عرق يطلقون عليه «هبهب»!!!.

تذكر سنية... كاد أن يتقيأ لصورتها القبيحة التي احتفظ بها خياله الخائن فهي ما زالت تتجول بأريحية في عالمه... مشـى عدة خطوات وهو يترنح ذات اليمين وذات الشمال بعد أن عب في جوفه زجاجة كاملة من العرق.

طـرق سـمعه جلبـة أطفـال في زاويـة مظلمة بعض الشـيء تجـاور محل الشـرب الذي خـرج منه للتـو... تقدم باتجـاه مصدر الصوت غير عابئ بما تخبئ له الأقدار من مفاجئات، هناك وجد مجموعة أطفال مشردين وهم يحومون بعدائية مفرطة حول طفل عاري لا شـيء يسـتره عن عيون السـماء المتلصصة سـوى جسد طري، يلسعونه بسجائرهم التي تضيء وجهه البريء، يصرخ لها طالبًا الرحمة بعدم تكرار فعلته المشـينة بحقهم... كمية العرق الكبيـرة التـي احتسـاها حميد شـلت تفكيره بعاقبـة مغامرته مـع هـؤلاء الأطفال الذين تعلمـوا كل ما احتواه قامـوس الرذيلة والانحراف من أبجديات واطئة حتى برعوا فيها بل تجاوزوها بخبرة وفيـرة من التماهي مع الإجرام... تقدم حميد باتجاههم غير عابئ بسكاكينهم اللامعة في الظلام:

- اتركوه.

- هذا خائن لقد وشى بنا.

- الشرطة تتعقبنا منذ يومين بسببه.

- قلت لكم اتركوه، أفهمتم؟ اتركوه.

وراح يصـرخ بهـم بهسـتيريا غريبـة أرعبـت جمـع الأطفـال الشرسـين وراح يلاحقهم بقوة نزلت عليه من السـماء تشـتتت لها صفوفهم وتمزقت كل ممزق متشظية في الأزقة مَقْعِيّة في الظلام.

- ماهي قصتك؟.

مات أبي في الحرب، مخلفًا تحت رعاية أمي طفلين بريئين، أنـا وأختـي التي تصغرني بعـام، ولم يمض على وفاته سـوى عام واحد وربما أقل، حتى تزوجت أمي من رجل كان يضربني بقسوة دائمًا، وكثيرًا ما أشـرك أمي وأختي بالضـرب... وفي أحد أيام الشـتاء الماطرة عدت مبكرًا من المدرسـة وطرق سمعي بكاء أختي وهي تشكو لأمي من دناءة زوجها وكيف حاول مداعبتها واغتصابها لكنها لم تمنحه مفاتيح جسدها للنيل منها... شاهدت أمي تتفجر كالبركان، رميت حقيبتي ولحقتها حتى غرفة زوجها وهو يعمر نارجيلته، وعند قدميه تفترش مائدة للشـرب بمختلف المشـروبات، توقعتُ أن تكون هناك مشـاجرة حامية بينهما لذا اختبأت خلف الباب أتابع ما يجري، كنت أخاف منه، وفي كل مرة عندما تصعد الخمرة في رأسه ويمارس هوايته بالاعتداء علينا أشعر برعب قاتل يعصر مثانتي ويفضحني أمام الجميع.

وبـلا مقدمـات تُذكر رفعـتْ أمي نعالها الأسـود المتيبس كقلبهـا المحـزون وانهالـت بـه علـى رأس زوجها، حـاول اتقاء ضرباتها الغاضبة، لكنه لم يفلح فإحداها تجاوزت يده وشـجت رأسه... أنكر فعلته بصراخ مرير مدعيًا أنه شاهد أختي في وضع فاحش مع ابن الجيران، لذلك أرادت تحويل التهمة عنها ونسـبها له... أختي كانت موجودة في الغرفة الثانية، لا أعرف كيف مرت من أمامي ودخلت ساحة النزاع، صرخت به: «أنت فاسد وكذاب سأشكوك في مركز الشرطة». تقدم نحوها والشرر يتطاير من عينيه الجاحظتين، حاوَلَتْ الهرب بعيدًا، لا أعرف ما الذي حصل لزوج أمي أنفجر كذئب مفترس، أمسك بأختي من شعرها بيد، وبالأخرى سحب أمي من ثوبها، وراح يضربهن بيديه ورجليه حتى أنه رماهن بمنفضة السـجائر فشـج رأس أمي التي سـقطت دون

حراك، ولما شاهدتها وهي تسبح بدمها انهارت قواي وجلستُ مع نفسي باكيًا ومياه حارة تسبح تحتي... وبعد فترة حسبتها الف سنة مما يعدون هدأ الموقف قليلاً، أمي مغشي عليها وربما ماتت من شدة الضربة، أختي هاربة خارج البيت لا أعلم أين هي الآن، أما أنا فمنزوٍ خلف الباب أسبح بمياه حارة أراقب خائفًا زوج أمي يواصل متعتـه في كرع كؤوس الخمر واحدًا تلـو الآخر بنفس مفتوحة دون أن يعير الموقف أي اهتمام يذكر... وهناك تغير كل شـيء فقد شاهدته واقفًا بعد أن مسح فمه بظاهر كم قميصه وعمد إلى أحد خزانات معرض الزجاجيات وأخرج زجاجة ويسكي تصطبغ باللون الأحمر ويتجه صوب جسد أمي الهامد وضحكات هستيرية يضج بها المكان يطلقها من فمه يجلد بها الفضاء.

يقف فوق رأسها الناقع بالدم العبيط... يفرغ زجاجة الويسكي على جسدها وهو يواصل ضحكاته الهستيرية... ما الذي يريد أن يفعله هذا القذر؟ لا أعلم... إنه يبحث عن شيء ما، لا أعرف ما هو بالضبـط... يا ويلي، لقد وجـد قداحة، فازدادت حدة ضحكاته الهستيرية ليربطها بحركات هستيرية أخرى وكأنه أحد رجالات الهنود الحمر في طقوسـهم النارية، وراح يدور حولها كمحيط دائرة حول مركزها... توقف عن جنونه ونزل عند رأسها وتكلم بكلمـات فـي أذنها لم أسـتبين معناهـا... هنا عرفت مـاذا يريد هذا الوحش، سـيحرق أمي... وبحركة سريعة لم أعهدها لديّ، توجهـت لمنفضة السـجائر ورفعتها مـن الأرض وهي ملطخة بدم أمي وقفزت عاليًا وكأن مجموعة أيادٍ رفعتني باتجاه السماء حتى اعتقدت أني المارد الذي يظهر في الفلم الكارتوني «السـندباد» وهويت بالمنفضة على رأسه فأسقطته أرضًا بلا حراك قرب أمي، فسـقطت القداحة من يده فوقها، فرأيتهـا تتوهج في حومة النار كرغيـف خبـز في تنور مسـجر... لا أملك شـيئا ينقـذ أمي وهي

تشتعل بلا حراك... حرارة النار بخرت مياهي الغزيرة... النار تقترب من زوج أمي لتلتهمه هو الآخر... عندها رأيت أحدهم يسحبني من يدي ويزجني خارج البيت في رحبة زقاق بيتنا.

ابتعدت عن بيتنا وأنا آراه كشعلة بيد مجنون يجوب الشوارع... لم أشعر بالأسف لمنظر زوج أمي وهو يحترق، لكن صورة أمي تؤلمني كل حين منذ هروبي فهي الصورة الوحيدة التي تحتفظ بها ذاكرتي... ساقاي يسابقان الريح باتجاه مدينتكم بلا هدى مني لا أعرف لم كانت مدينتكم محطتي الأخيرة في مسرحية الهروب التي كنت بطلها الأوحد.

أعلنت حدود المدينة وصولي مرهقًا غائبًا عن الحياة عند أعتاب بوابة خان سيد عادل... وكما شاهدتَ قبل قليل صرت أحد أفراد منظومته المنحرفة لبيع المخدرات، منذ سنة وأنا أعيش الويلات مع أولاد الزنا وشذوذهم بصحبة سيد عادل... فرت دمعتان بدرجة حرارة مئة فهرنهايتية من عيني حميد لاكتشافه مأساة أكبر من مأساته، مأساة بلون الوجع، بلون الآه... سحب رأس الطفل إلى صدره واحتضنه وأنشأ يقول: «كم نحن عاجزون عن نيل السعادة».

مسح دموع عينيه بظاهر يده وقاد الطفل إلى سنية حيث استقبلته بوجهها الماطر بؤسًا، أرادت أن تسأله عن جدوى السفرة، وكم دخل جيبه من النقود؟ مُصوّبة نظراتها الفاحصة على جيوبه، لكن دخول الطفل بمنظره المريع وجسده المُدمى جعلها تذهل عما أتى به حميد من كنوز الساحر (جبار مكافحة)...

- عالجي جراح الطفل فهو هديتي لك...

قال حميد جملته بلهجة آمرة فيها شيء من البشرى، استجابت لها سنية بسرعة وهي تمسك بيد الطفل مبتسمة وكأنه وهبها

الحياة بعد موت طويل.

- سنية؟ الجوع يقتلني.

استدارت سنية باتجاه حميد الذي بادرها بإخراج ما حوته جيوبه من أموال وراح ينثرها فوق رأسها استبشرت لها راقصة.

في صباح اليوم التالي استيقظ حميد على صراخ سنية وهي تلطم خديها وقد شقت ثوبها طوليًا حتى أذياله التي لامست الأرض، صراخها أيقظ الجيران فاجتمعوا صغارًا وكبارًا في صالة البيت وهم يتفرجون على سنية وهي تندب حظها العاثر.

- أين الولد؟

قال حميد وهو يعالج نظاراته ليرى المشهد بوضوح:

- اعتقدت أنك قد أرسلته إلى فرن الصمون في آخر الشارع، لكن منظر باب مكتبتك وهو مفتوح أقلقني فراودني شعور غريب بأن هناك أمرًا جللاً، ولما ذهبت لتفقد النقود التي جلبتها من مغارة (جبار مكافحة) لم أعثر عليها... لقد سرقها الطفل يا حميد... أفهمت لقد سرقها الطفل.

- والمكتبة؟

- لا تخف لم يمسها شيء... مكتبتك شرفك فمن لا مكتبة له لا شرف له.

حميد يتطلع بوجوه الناس المحتشدة في الصالة وقد تحولوا إلى خمسة أطفال يعتلون جسده ضاحكين وهم يقولون له:

- بابا... بابا... استيقظ، لقد انطلق مدفع الإفطار....

- رامز ... مائدة الإفطار جاهزة لقد نمت كثيرًا يا زوجي العزيز منذ عودتك من اجتماع الوزارة.

توزعت نظرات رامز التائهة بين زوجته التي اسمها سمراء

وأطفالـه الخمسـة وهو يضحك بصوت هسـتيري أغـرى الجميع لمشاركته نوبة ضحك لا تتكرر مثيلتها...

- مَن حميد؟ (يضحكون)... مَن سنية؟ (يواصلون الضحك)... مَن (جبار مكافحة) وأمه (علاية)؟... (ترتفع حدة الضحك)... مَن هذا الطفل المشرد؟...

غـاب الجميـع في ضحك فنطازي حد البـكاء، ونداء اللّه أكبر يتفجر مع غيره كعيدان علبة كبريت في يد مجنون.

***

أزقة من نواح

ضوء باهت يمسح سطوح المنازل بكف خجولة قاطعها النور، انكفاء على فراش بارد مَدَّتْه أيادي الأمهات ما قبل مغيب الشمس، دب شفيف نعاس في أوصال المدينة المتعبة التي راحت تتخلى عن أضواء نوافذها واحدًا بعد الآخر... نام الجميع، إلا أنا، ما زلت أواصل لعبتي المفضلة في سرقة النجوم من على خارطة السماء، أخبأها تحت فراشي، تحت وسادتي، في جيب بيجامتي «البازة»، ما بين فِخْذَيّ، حتى غدوت كسماء مرصعة بالنجوم افترشتْ سطح دارنا.

فرح أنيق يهيمن على المشهد، وعند آخر حدود طاقة يدي في التقاط النجوم، تسرب الخدر مليًا في جفوني، أسبلُ يديَّ، أمدُ أقدامي خارج مستطيل الفراش الذي يشاركني فيه أخي الأصغر، أميل برأسي متجاوزًا حدود الوسادة، أغط في سبات عميق عميق... الفجر في الخارج يقرع أجراسه، ويغني أغنية الغبش بصوت ديك عاندته دجاجته، يشاكسه صوت آذان يلاقح صوت آذان آخر... أستيقظ فزعًا على رفسة أبي كالعادة وهو يقول: «اذهب لمخبز حنون واشتري لنا خبزًا للفطور»... رذاذ ماء الوضوء يفر من يديه ملامسًا وجهي، أشعر بنشوة لذيذة، أنهض على إثرها قافزًا من فراشي كحجر أفلته طفل مشاكس من صيادته المطاطية.

ابتلعني الشارع في تفاصيله الترابية، ونظرات أبي الحانية تعلو جدار السطح من فراغات في قلبه تتابع ظلي وهو يكنس الشارع... نظرات تصنع هالة دائرية حول جسدي، تشيعني حتى

آخر رجل يقف في الطابور الطويل لشراء الخبز الحار.

خيوط الشمس تراود الغبش عن عفته، الملل يستفز هدوئي، حنون الخباز يحابي البعض من كبار السن، ونساء لم يغسلن وجوههن، تتحطم آخر درجات الصبر لدي، أفتعل جلبة مع طفل آخر بعمري، أقترب مليًا من أقراص الخبز، وفي غفلة من الجميع أستل قرصًا ساخنًا يتلوى دخانه متصاعدًا مزحزحًا ظلمة الليل.

أجري بكامل طاقتي مثيرًا خلفي هالة غبار كثيفة، وفي غمرة الجري من غير هدف نسيت مناسبة وقوفي في هذا الطابور الطويل، حرارة الرغيف وهو على صدري، تدفع بي لأمزق المسافات، نصف الرغيف يأخذ طريقة إلى معدتي، وإشارات متعددة من قبل النهر تستحثني أن أقبل أيها الطفل المشاكس، أصل عند سدته الترابية أتطلع إليه كقائد عسكري يستطلع ساحة معركة قبل إعلان ساعة الصفر لهجوم حاسم، أتطلع إليه وهو يتهادى باتجاه الشرق بلا انقطاع ، ثمة صور تكشف هويته، تتحدث عن سيرته، غنم طاعن في الوجع يحث غنمه بأصوات غريبة، امرأة بخيلة في كشف جمالها إلا من عينين تسربت على خجل وتربعت على حافة النهر تغسل ثيابًا سوداء أدمنت العويل، أسماك صغيرة تتشكل في تجمعات جائعة تتلوى فوق بعضها عند جرفه تتوسل فتات خبز، أرمي لها قطعًا صغيرة من نصف الرغيف المسروق، تلتهمها على عجل خوفًا من قدوم سمكة (أبو الحكم) الشرهة، تبتسم بوجهي شاكرة، أرى مدير مدرستنا يمشي الهوينا فوق السدة الترابية والريح تعبث باستفزاز بشعرات تفرقت فوق صلعته السمراء، خانته قدمه فاختض بكرش يتقدم جسده ونظارات كعب استكان تملأ وجهه إلا من شاربين خطهما قلم سحري، أرى أيضًا أطفالاً أكبر مني سنًا يتقاذفون أكف الماء برشقات متتالية تعلوها ضحكات تعكس استمتاعهم،

ومن غير مقدمات يبادرني كبيرهم:

- سنعبر إلى الضفة الأخرى، هل تأتي معنا؟

حلم يراود روحي سيتحقق برفقة هؤلاء الصغار حيث مجاميع الإوز الأبيض التي كانت سباحتها تروق لي وهي تمكث عند الضفة الأخرى، نظراتي المكثفة للنهر أصابتهم بالملل، لا ينتظرون جوابي، يقفز الجميع في لهيب النهر، أوزع نظراتي ما بين الراعي والمرأة والإوزات التي في الضفة الأخرى، أخلع ملابسي، أضعهما على السدة وفوقهما قطعة حجر كبيرة مخافة هروبها بصحبة الريح، أقفز محلقًا في الفضاء ثم أجتاح سطح النهر... جسدي يخض الماء خضًا، أرى بطرف خفي أسماكًا تقفز في الفضاء مع قفزتي الفقيرة إلى الخبرة، الإوز يصفق لي بأجنحته، الأسماك الصغيرة تحملني بزعانفها، دقائق مضت، نقص شريط النهاية سوية أنا وبقية السباحين وعلامات النصر تتلون بها أصابعنا... نخلتان بانت جذورها تقف على الجرف بانتصاب مائل تحي قدومنا، دقائق من الضحك والبهجة تحكي قصة جرأتنا، كبيرنا ذو الشارب الزغبي يقرر قاطعًا خيوط النشوة وهو يعطي الأمر بالعودة من حيث أتوا... يعلو قرص الشمس قليلاً فوق أكتاف البيوت الطينية، فيكشف بشرة النهر كم هي صقيلة، لا ينتظرون مني جوابًا كالعادة، يتسربون في معانقة النهر واحدًا بعد الآخر. النهر يخيفني، أرى عبد الشط يقف منتصبًا في منتصف النهر، يبتسم ابتسامة صفراء، أرى يديه تتحسس أقدامهم، صورة صديقي محمود تعيد فرض نفسها على مشهد حياتي وهو مسجى على السدة المجاورة للنهر بعد أن أخرجه الغواص عيدان الأخرس محمولاً على يديه جثة هامدة، أتسلل من فراغات في غابة الأقدام الكثيفة التي تحيط بجسده وهو ينضح قطرات ماء يحلم الجميع بطهارتها.

أتفرس في وجهه، خصلة شعر سليكونية تنحدر ملتصقة على خده، فم صغير طالما تفجر بضحكات كالمطر، عينان ذابلتان بلون البحر، رباه من أين لهما هذا اللون الشذري، سألته عن عينيه أجابني مبتسمًا:

- أكلتها الأسماك الصغيرة التي كنت تطعمها خبزًا يا صديقي، وكأنك كنت توصيها بذلك.

أسعل ضحكاتي بوجهه قائلاً:

- آه لو كنت معي...

صرخ بوجهي:

- تركتني وهربت، جبان.

أمسح الزبد عن شفتيه.

- أتَذْكُر يوم أمس؟ عندما غلبتني كل تصاوير اللاعبين... فلاح حسن وعلي كاظم وحسين سعيد؟ أين هي؟ في أي جيب خبأتها من بيجامتك المقلمة؟.

رحت أفتش جيوبه لم أعثر عليها، ارتفعت قدمه عن الأرض قليلاً وركلني في بطني تقلبت متدحرجًا بين أقدام الناس وهو يقول:

- غبي... أما تعرف بأن عبد الشط كان يسحب الأطفال من أرجلهم ليسرق ما في جيوبهم من دعابل وصور اللاعبين ليعطيها لابنه الكسيح، لقد كلمني برجاء وأنا في وسط النهر وهو يضع ابنه متأرجحًا فوق عنقه...

- إنزل قليلاً لتلعب مع ولدي إنه طيب لن يؤذيك.

بكيت كثيرًا... وقلت له:

- لا أريد اللعب مع ابنك عندي أصدقائي الذين أحبهم.

شاهدت ابنه الكسيح من فوق رأسه وهو يطلب مني اللعب معه، قلت له وانا أحاول التملص من يد أنانيته:

- خذ هذه التصاوير ولا تقترب مني.

سَحَبَني من قدمي بعنف إلى أعماق النهر، وراح يجرّني موبخًا حتى وصلت القاع وفقاعات هواء متحشرج تندفع من فمي باتجاه السطح.

- ماذا وَجَدْتَّ يا محمود؟

- وجدت أطفالاً كثيرين بعمري يلعبون معه وهم ما بين باك وصارخ... كلٌ يريد أمه إلا أنا لم أبك لأني بلا أم أصلاً، إذن علّامَ أبكي، لعبت معه داس داسين، كان كثير الاحتيال يريد الفوز بأي شكل، مللته وبصقت في وجهه، كانت رائحته عفنه، رائحة سمك متفسخ، اعلم يا صديقي: كلنا مسخرون من أجل عيون ابن عبد الشط نرد عليه الوحشة.

ابتعد الإوز كثيرًا وهو يسبح بنسق ورتل منضبط، أرى محمود يسبح مع رفاقي وهو الغريق قبل يومين، أترك ضفة النهر خائفًا منسحبًا بركضة سريعة عابرًا الجسر العائم وأنا أوزع نظري بين الضفتين ليس هناك فرقٌ بينهما كنا نلهث خلفه، إذن علّام كنا نجتهد في السباحة بين الضفتين.

عبد الشط يقف حاملاً ابنه وبيده كرته البالية مشيرًا نحوي بأن تعال للعب معي، أبصق بوجهه أنا الآخر وأجري لاهثًا، أجتاز الجسر العائم بخطوات عريضة، لا أعرف هل وصل رفاقي ضفتنا الخالية من الإوز أم لا؟.

تواجهني البيوت وهي تعانق بيوتًا أخرى، تفتح الأزقة أذرعها، أتجاوزها مخلفًا بيجامتي عند السدة الترابية، أمُرّ سريعًا من أمام باب دارنا كأنني أراه لأول مرة، أجد أصدقائي قد سبقوني وهم

يحملون بيجامتي المثخنة بالتصاوير، يخرج أبي لاطمًا رأسه وصدره بكفين من وجع، ويشماغه المتشكل بصورة شبكة صيد سمك يحتضن الأرض، يأخذ البيجاما يقبلها، يغطي بها وجهه، تحتضنه أمي وقد كشفت عن صدرها وأزاحت عصابتها لاطمة وجهها، مخمشة خدودها... إخوتي الصغار يتشبثون بأذيالها، أكلمهم لا يعيرونني انتباهًا، أبكي لبكائهم، أشاركهم اللطم، أتقلب فوق التراب كما يفعلون.

الجميع يردد أسمي باكيًا... أفقدُ آخر قطرة صبر في قارورة روحي، أصرخ بالحضور.. أمي، أبي، أنا حي، من مات هو محمود ابن جارنا عباس النجار... لا أحد ينظر بوجهي مرطبًا تساؤلاتي.

يد حارة تخترق ضلوعي، ألتفت ناحيتها، أجد محمودًا يضع يده على كتفي قائلاً: لا تحزن يا صديقي، وهو يرمي فوق رأسي كومة من تصاوير اللاعبين.

- محمود؟ أنت تدهشني، أرى عينيك وقد عادت للونهما الأسود الطبيعي.

- أمّا عيناك... هي من أصبحت زرقاء.

امتلأ الشارع بالناس، حنون الخباز دون مخبزه، والراعي دون غنمه، والمرأة دون نقابها، حتى أنى شاهدت الإوزات وهي تسير بنسق نظامي وهي تحمل فتات خبز وكأنها سرية جنود متجهة لمحرقة حرب بأوامر طاغية ذي خال في وجهه... البرد يسير متجولاً في الوجوه، ونهر منبعه عيون أمي وأبي يتلوى منحدرًا حتى ضفة النهر، وأنا ورقة يغلبها الريح تتجول في أزقة من نواح.

علب من جمر

بعدَ انكسار عفّة النجوم، وهروب قدسية السماء، تلفّع الرجل ذو الأسنان الصفراء بقميصه المليء بالزهور وهو يُحكِم أزراره بعناية لتهبط يده مرتخية للأسفل رافعًا سحاب بنطلونه ذي الجيوب الكثيرة بنشوة المنتصر.

جلس مزهوًا على كرسي بلاستيكي مكسور تمت معالجته بخياطته بسلك معدني أُنتزع من نقطة كهربائية مهملة فبدا شكله كغرز خياطة جرح عميق في وجه أحدهم طعنته سكين شقيّ متسكع... بوهنٍ التقط عُقب سيكارة مرمية على الأرض، ذكّاها على عجل فأكلت نفسها مودعة آخر جذوة في حياتها... نفث دخانها باستمتاع غريب، ومن خلاله تطلع إلى المرأة القابعة تحت قدميه بنظرة ازدراء مهين.

- خذي..

رمى إليها ورقة نقدية حمراء من فئة العشرة آلاف دينار، تلقفتها باشتياق جعلها ترتبك في السيطرة عليها وهي تتنقل بين يديها كريشة طائر في مهب الريح... حرك رأسه المدور للأعلى بإشارة لها أن تمسح عن جسدها رذاذ قيئه المعطر برائحة العجين المختمر، ثم رمى عليها عباءة سوداء مال لونها إلى الاخضرار لِقدَمها، حاملة عدة ثقوب لسجائر متطفلة... التفتت ناحية ابنها النائم بطمأنينة في أقصى مخزن الملابس الذي يمثل الملاذ الآمن لكل حماقات ذلك الشاب ورفاقه من أصحاب المحلات في السوق العربي.

حملت الطفل على صدرها، اعتمرت عباءتها كيفما اتفق،

قادها صاحب رائحة العجين المختمر خارج باب المحل والشرود والذهول يحيطان بها كجدران متحركة تتأهب للإطباق عليها.

تطلعت للشارع وهو يبتلعها بعيون خجلة، أمعنت النظر فيه مجددًا وهو يحمل فوق ظهره سيارات متحركة وأناس تجلد الأرض بأقدامها وهي تمشي خارج أسوار الوعي باتجاه مجهول لا يحمل حلولاً لمشاكلها.

مالت جانبًا باتجاه بائع للحليب المجفف، مدت يدها نحوه بالورقة النقدية، ارتبك الرجل لمرأى الورقة نظر باتجاه المحل الذي خرجت منه، سألها بعينيه، أجابته برجاء:

- عجِّل واعطني أربعة علب من حليب ديالاك، فصغيري في انتظار بعض الحليب، وزوجي يلوح لي أن أقبلي سريعًا، وهو يتسمر واقفًا في الجانب الآخر من الشارع... أعطاها الأبكم ما طلبت وأعاد إليها الورقة النقدية ومعها ابتسامة وهو يؤشر بيده نحو أثر التزوير في الورقة.

وزعت نظراتها الغائبة عن المكان بين زوجها الذي احتل الجانب الآخر للشارع وهو يؤشر لها بيديه حاثًا إيّاها للإسراع كي يلحق أصدقاءه في جلسة خمر على سطح أحد الفنادق الرخيصة في البتاوين... مالت بوجهها اتجاه صاحب المحل وهو يرنو إليها ضاحكًا وقد اختفت يديه في جيب بنطلونه، ثم انحدرت بعدسة عينها ناحية بائع الحليب وهو يتطلع إليها بنظرة إشفاق كادت أن تقتلها... وأخيرًا سلّطت نظراتها باتجاه الفراغ فوجدت بساط الشارع يكتظ بالسيارات وهي تلهب ظهر الهواء بسرعتها الفائقة.

- وداعًا.

قالتها للأبكم كوصية بأن يعتني بولدها واختفت سريعًا بين عجلات السيارات مودعة خرافة الوجود وهي تضع نهاية لمسلسل

القهر الذي لا ينتهي... احتلت علب الحليب أديم الشارع وهي تجري مزاحمة عجلات السيارات... أمّا زوجها فقد انسحب بهدوء باتجاه العتمة وهو يندب حظه بخسارة سهرة ممتعة... بينما الشاب الواقف ساخرًا يواصل ضحكه وهو يستدير داخل المحل خلف امرأة ناضجة تمشي بغنج دخلت بإشارة منه.

أصَمّ صراخ الطفل الرضيع أذان البائع الأبكم وهو يحتج على سخرية الكون منه ومن أمه... حاول الزحف باتجاه العلب المتدحرجة بعيدًا... لكن البائع رفعه من على الأرض محتضنًا إيّاه، سائرًا به من أمام محل الشاب النزق ليشتركا ببصقة واحدة أغرقته هو وزبونته الغنجة... اختفت كل الصور التي تدفقت بإمارات الحزن ليتوقف المشهد على صورة الورقة النقدية المزورة وهي تحمل صورة البطل التاريخي مبتسمًا بسخرية لكل البسطاء.

جحيم البسطرمة

كانوا يسمونه سعيدًا ، لكنه لم يذق من هذه السعادة المفترضة شيئًا ولو للحظة واحدة ، حيث كُتب عليه العويل منذ ليلة العثور عليه ملفوفًا بخرقة بالية على ضفاف دجلة ذات شتاء في الساعات المبكرة من عمره بهيئة كومة لحم حمراء استقرت بين الماء والطين... منذ تلك الليلة وسعيد مقطب الجبين ، لم يُرَ ضاحكًا البتة ، حتى أن أسنانه بَدَتْ للناس مصدر سخرية ورهان فيما بينهم ، هاجسهم التنافس في مَنْ له القدرة منهم على كشفها ومعرفة الطالح والصالح منها في ضحكة إعجازية تقفز من فمه سهوًا ... مر الجميع بتجارب عديدة باءت جميعها بالفشل ، فخسروا رهانهم على أعتاب حزنه ، فبقيت ابتسامته طلسمًا مجهولاً للجميع ، لا يستطيع أحد فك شفرتها وإخراجها من سجنها السرمدي... كان أول وجوده بين الماء والطين ، وجود يحكي حكاية مخلوق خلقته الصدفة ، متشكلاً من حفنة طين حري وماء دهلة ، عجنتهما جنية الرحمة تحت نار مكنستها ، فكان طفلاً يرتدي خرقة بالية يمتهن الصراخ لغة.

بدد صراخُ سعيدٍ حواجزَ الظلمة فاستدرج مسامع هنية المتخمة بالأفكار الشيوعية أثناء إحدى ممارساتها الليلية المعتادة في مطارحة الغرام مع أحدهم لقاء مبلغ مالي زهيد يكفيها يومًا ، أو بعض يوم ، وهي ممارسة أذلتها كثيرًا من أجل «قوت لا تموت» كما يقول المثل الشعبي ، فضلاً عن حَنَث الكثير من زبائنها السوقيين بمنحها رذاذ جيوبهم وتنصلهم عن اتفاقاتهم الهزيلة!!... في هذه الليلة الغريبة ، علا صراخ سعيد مشكلاً موجات صادمة

أقلقت هنية وهي تضطجع تحت زبونها رويضي الحداد... وما إن سمعت صراخ الطفل انتفضت كلبوّة خامرها شعور الأمومة بخطر يحدق بأشبالها، دفعت الرجل بعنف بعيدًا عنها وهي تمسح بقلق حبات عرق لؤلؤية ندّت عن جبينها رغم درجات الحرارة المنخفضة عند جرف النهر وفوق مشحوف سلمان السماك مقر عملها الليلي الذي لازم المياه الضحلة طيلة عقود بعد موت سلمان سكرانًا غارقًا في النهر.

«أسمعُ صُراخَ طفل»... قالت هنية..

رد عليها رويضي بشيء من السخرية وهو يجر أنفاسه المتثاقلة نتيجة لتموج حركته الشبقة فوقها:

«وما شأنُكِ أنتِ»؟

لم تأبه برده البارد كبرودة أنفاس هذه الليلة الفريدة... لفت عباءتها بيدها بحركة لولبية نشطة وهي تتملص من بين ساقي رويضي الطويلتين... ترجلت من المشحوف مسرعة لبلوغ مصدر صراخ الطفل وقد نسيت أن ترفع لباسها الداخلي حتى خصرها، كما نسيت أن تنتعل شحاطتها المتهرئة، حتى إن أحد ثدييها قد رفض الاختفاء مثل توأمه داخل ثوبها الرث فراح يطل مراقبًا ما يحدث أمامه وكأنه كاميرا معلقة بصدر ممثل تصور محيطه بلقطة بانورامية.

وجدت هنيةُ صنيعةَ الله، شبيه يوسف في جماله، ونظير موسى في دراماتيكية وجوده في أحضان زوجة فرعون. عدة خطوات متعثرة خطتها خارج المشحوف، أسقطها شغفها على وجهها لمرتين، مما أجبرها أن تقبل الأرض بكامل شفتيها وتكحل عينيها بمداد الطين، وكأنها تمارس طقوس شكر الرب لبلوغ أسماعها ذلك الصراخ السحري لسعيد الشبيه بمزامير

داوود ، وهـو يصدح لأهل الجنـة تكريمًا... ومن خلال بقايا ضوء المصبـاح اليـدوي الذي علاه البرغش برفقة حشـرات أخرى راح رويضي يتابعها لمعرفة أصل هياجها بهذا الشكل المفاجئ وهو يلعن كل صدفة شَكّلت حياته.

غرقـت هنيـة حتى مفرق رأسـها في نهر تأمـل وجه الملاك المُقَمّـط بالخرقة الباليـة... طفلٌ مكتملُ الهيئة ، جميل المحيا ، وثمة نور بألوان شتى يطل من بين ثنايا وجهه يخبر بنقاء سريرته... توقف صراخه ، تكلم في المهد صبيا «أمي.. لا حاجة بك لضياء مصباح رويضي ، فأنا هنا بعشرة مصابيح». لم تألو هنية جهدًا في التفكيـر: مَنْ هذا؟ مَنْ هم أهله؟ وكيف أتى إلى هنا؟ ومَنْ قَدِم به عند متاهاتِ خيباتها؟ وأيّ قلب يحمل؟.

أهملت كل هذه الأسئلة وحزمت أمرها سريعًا بانتشاله من هذا المكان المُوحش، لفت جسـده الغض بعباءتها وأحكمتها حوله ، عباءتها الملوثة بآثار طينٍ معجونٍ ببصاق رويضي المطعم بتتن محلي... هرولت بكومة اللحم المسماة سعيدًا باتجاه بيتها ، دون أن تلتفت لأخذ أجرتها من رويضي ، أو تسـتعيد شـحاطتها... أو حتى توديعه على أمل اللقاء به في موعد آخر كما هي العادة... سـلوك هنيـة أثار حفيظة رويضـي ليصرخ بها وهـو يتابعها بضوء مصباحـه الخافت المرتجـف كعجوزٍ على أعتاب قبـر: «هنية .. أجرتك؟» عانق نداءه دوائرَ موجاتِ النهرِ المتراقصة بفعل حركة الأسماك الدائبة ليختفي بعيدًا في قاع النهر... تماسُّ قلبِها مع قلب ملاكهـا أعطى أمرًا لجميع حواسـها أن تغيب عن العالم ، ليعلن هاتفها الروحي إشارة للجميع بأن الخط مشغول ولإشعار آخر.

واصلـت نهبهـا لـلأرض بأقدام من عجـلات خرافية عجّلت بوصولها لبيتها سـريعًا ، مما أحبـط تطلعات رويضي في تكملة

متعتـه الكاذبة في أحضان هنيـة ، فما كان منه إلا الاضطجاع على ظهره في المشحوف وممارسة هوايته المفضلة في مضاجعة يـده المتضررة من ضربـة مطرقة حديدية في لحظة سـهو وغفلة مستذكرًا جسد هنية الذاوي كسعفةِ نخيلٍ مصيرها تنورٌ مسجر وهي تتلوى بين فخذيه على أنغام موال لِياسٍ خضر «حِنْ وانا احِنْ».

وفـي قـرار صادم لجميع سـوقة المدينة اعتزلـت هنية مهنة الدعـارة دون معنـى للتوبة الدينية التي طالما تبجح بها ملا عشـم على مسامعها وأمام مرأى وأسماع الناس، بل وجدت نفسها أمام مسـؤولية اعتبارية كبيرة لتربية هذا الطفل الجميل، كما أنها اعتبرت الشرف أمانة وهي ترتبط به فتصورت مدى الإحراج الذي سيرافقه عندما يكبر وأمه ، أو مربيته مشاعة لنزوات الجميع.

كانت هنية كثيرة التطلع بإسهاب بوجه سعيد ، تطمح أن ينتشـلها برقة عن عالمها الموحش كشـعرة من طنجرة عجين، تتأملـه ، ترى فيه شـيئًا فقدته منذ زمـن: الأهل، الزوج، الإخوة، الأخـوات، اللحظات الجميلة ، لذلك سـمته سـعيدًا لرغبتها بأن تكون حياتها سـعيدة على يديه في قابل الأيام ولو بعد خسـارات متعددة... لكنه كان يقرأ على الدوام في آبار عينيها حزنًا كبيرًا يكاد يحرقها ، لذلك مكث معها وهو يعتاش في حزنه على خراب الماضي كمواسـاة لها ، لا نقمة عليها أو رفض لسـلوكها ، لأنه وعى تفاصيل حياتها دون أن تذكرها أمامه... فشعر بمظلوميتها وجفاء الزمن معها.

أصبـح سـعيد كل حياتهـا ، كانـت قسـمات وجهـه تحرك فيهـا إحساسًـا قديمًـا ، تبتهـج لأجلـه، يذكرها بزوجهـا الذي قتله القومجيـة بعد أن علقته إحدى عصاباتهم على أحد الأعمدة الكهربائيـة بعـد أن ثبـت لديهم تعاطيه للأفكار الشـيوعية مع

جملـة من إدمـانٍ للعبارات المؤيـدة للزعيم، ليأخذ وجود سـعيد نوعًا من العلاج النفسي لها لتنسى بعض ماضيها، وكأنها تأخذ اسـتراحة فتعود للبكاء الذي انتشر سـريعًا كالفطر في فيافي روحهـا، كمـا إنهـا خلقت معاني وملامح في سـعيد شـبيهة بما توفرَ لدى زوجها، لتقتنع قناعة تامة أن سعيد نتاج زوجها الراحل مليون بالمائة.

كانت مسـكونة بالخوف والهواجس في أن يعود شـريط حياتهـا الماضية وخاصة في جزئية رخصها أمام شـهوات سـوقة المدينة الناتجة عن سـخافة الوطـن بصور جلاديه وهو يلوي عنق روحها استجابة لنزواته، تخاف كل ذلك لو حصل شيء لسعيد، سـعيد الذي تخفق روحها عليه حتى من قطرة مطر رطبت خده، أو نسـمة هـواء داعبت عنقه، أو كحة خفيفـة لازمت صدره، أو حرارة طفيفة صافحت جبينه... ما زالت مقولة زوجها تعزف ألحانًا أسـطورية في روحها: «أطفالنا لا يعيشون وفقًا لإرادتنا الأبوية»... وكلمـا وردت هـذه المقولة على بالها احتضنتـه طويلاً في عناق طويـلٍ أشـبه زمنٍ بزمنٍ مفتـوح على مصراعيـه لا بداية له ينطلق منها، ولا نهاية تعرف حدوده.

كانـت هنيـة معلمـة محترمة، قدمت الكثيـر لزوجها في نضالـه الشـيوعي، وعانت الأمَرّين لتكـون بجانبه بعد أن خذله جميـع أهله وأصدقـاءه، لكنها دفعـت الثمن غاليًـا على أعتاب السلطة، التي امتصت رحيق شرفها في عملية اغتصاب انتقامية طالتها هي والكثير من نسـاء رجالات الفكر الشيوعي، لتُرمى إلى الشـارع جسـدًا بلا روح، جسـدًا أدمن النواح، جسدًا أكلته قرصـات الأصابع الملوثة، ليتلقفها المجتمع كفريسـة سـهلة، فـراح ينهش بجموعه المتوحشـة كل جميل فيهـا، ملوثًا بقاياها بقبحه السـادي، فسارت اضطراريًا دون وعي منها في طريق زُرِعَ

بالمفخخات التي وخزت أقدامها حتى نزفت آخر قطرة كرامة في وطن لا يعترف بالمخلصين... لكن اقتحام سعيد لحياتها أسدل الستار والى غير رجعة على مسرح ماضٍ رهيب يرمز إلى سيل من الأخطار والأخطاء، مما ولّدّ لديها القوة لمقارعة المثل الروسي في مصداقيته: «إن حياتنا ما هي إلا تكرار لأخطائنا» فخيمت بروحها المعذبة على ربيبها سعيد وأفنت زمنها من أجل زمن هذا الطفل المجهول الهوية والعنوان، فما عادت الأخطاء ترسم طريقًا لوجودها.

كبُر سعيد وكبرت همومه واستفحلت لديه عقد الدنيا كلها نتيجة لوراثة علائقية ورثها بطواعية وحتمية إلهية من أمه هنية المعذبة، وكان أشدها عليه التحاقه بالخدمة العسكرية وسوقه إلى جبهة القتال لشعور بالاستلاب والدونية كان قد طغى عليه بقوة، مما ولّدّ قطيعة لديه أطرافها ذاته والواقع المعاش... شعور باللاإنتماء فجر فيه الكراهية لكل صور الموت من لحظة التحاقه بسيارات الريم في كراج النهضة وحتى وصوله إلى الجبهة مرورًا بكل صور الضباط والقادة العسكريين وجميع معدات الحرب التي اعتادت على التهام رفاقه واحدًا تلو الآخر، لذا لم يألف هذا الجنون بالمرّة، فواجهه بجنونٍ آخر... كان دائم الحساب لعدد القذائف التي يطلقها العدو وهي تحز رقاب رفاقه، كان يعد ذلك بطريقة رياضية فريدة «القذيفة × عدد الشهداء من رفاقه =عدد الثكالى + عدد الارامل+ عدد الأيتام»... فكانت الأعداد تؤرقه وتجعله يعيش في عالم غير عالمه وكأنه يُزَف مع جثامين الشهداء إلى مقابرهم، يعيش قصصهم وهم يروونها على بعضهم البعض من أجل قتل الوقت قبل وصول منكر ونكير، لذا كان يموت باليوم ألف مرة حسب نتائج نظريته الرياضية.

أحد الجنود من رفقة سعيد في الجبهة كان اسمه «جمال

الأعور» والذي كان نسخة منه لأنه صديق طفولته كما شاركه بالعيش على الهامش في مراحل عديدة من وجودهم... تشاركوا في كل صور البؤس حتى الاسم هو الآخر لا يعكس حقيقته الداخلية، فعينه التي سقطت أمام بقية رفاقه نتيجة لرصاصة قناص معادي، ولَّدَتْ مناهضة بين شكله المشوه واسمه الجميل، ليكون حاله حال رفيقه سعيد «جميل بس بالاسم».

هذه العين القافزة من موضعها بشكل ضفدع أمام عيني سعيد حركت في داخله رفضًا لواقع زائف يتحلى بالكذب بادعاءات وطنية ودفاع عن الشرف والمقدسات، فتولد لديه شعور من رحم الواقع، إذ لم يعد لديه أدنى رابط بهذه الحرب وهو يقول مرددًا وبجنون وسط ساحة العرضات ليلاً أمام رفيقه في نوبة الخفارة في حراسة وحدتهم العسكرية: «مشعلوها يتنعمون بالجنة والبائسين يتحملون لظى سعيرها، أي خراب حل بساحتنا».

ومن هنا انطلقت المسببات في إعلان الثورة الكبرى بالرفض لكل شيء له صلة بهذا الوجود المتخندق عسكريًا... لذا لم يدخر وقتًا للتفكير في مغادرة هذا الجحيم ليعلن فراره من الجيش مطلقًا ومن يومها أطلق عليه لقب «سعيد الفرار» رغم هروب نصف الجيش العراقي يومها، لكنهم لم ينعتوا بهذا الوصف الملازم له حتى الممات.

وفي ليلة مكفهرة من ليالي الصيف كان سعيد وأمه هنيه ينامان على السطح البارد كما هي العادة لدى الجميع وخاصة في المحافظات الجنوبية ذات المناطق الشعبية والبيوت القديمة المميزة بطابعها العمراني السوري والتركي المزود بباحة واسعة وسطح كبير، إذ تسورت السطح في هذه الليلة مجموعة من رجال الانضباط العسكري وهي تنط كذئاب غزت حضيرة نعاج... فما

كان من سعيد إلا القفز على سطح جيرانهم هاربًا من جمهور الذئاب برشاقة، مما حفزهم لإطلاق النار عليه وبرصاصات عدة أتت إحداها في صدر هنية التي وقفت أمامهم كالسد المنيع مدافعة عن ابنها، ونزفت آخر نبضات روحها وهي تعزف ألحان الموت برجاء نجاة سعيد.

«يمه وليدي!!!»

مر زمن طويل على تلك الحادثة المأساوية ولكنها مازالت تعيش باجترار نصب مخيلة سعيد الذي حث السير باتجاه محطة إسالة الماء لتبديل صديق طفولته جمال الأعور في خفارة العمل الذي تم تعيينهم فيه بعد سقوط بغداد بيد الأمريكان... لكنه وصل متأخرًا عن موعد استلام نوبته في حراسة محطة الإسالة مما أجبر جمال على ترك مكانه لشعوره بالملل والضجر من الانتظار الذي خرج عن حده، لكنهما تلاقيا وجهًا لوجه في مكان قريب من المحطة، تبادلا التحية بفتور معتاد:

- ليش تأخرت؟

- أصعب سؤال بس روتيني

- عندك جواب؟

- لا

هز جمال يده صافعًا الهواء دليل عدم رضاه.

- كلمة ضعها ترجية بأذنك، كن على حذر، فليلة البارحة لم تعرف عيناي طريقًا للنوم.

أدار جمال ظهره تاركًا المكان وهو يتمتم بكلمات مبهمة دون أن ينتظر من سعيد ردة فعل لقنبلته المشفرة والتي رماها وذهب بطريقة «الدغ واهرب». ودّعه سعيد حتى اختفاء هيكله

منحدرًا أسفل الجسر المجاور لمحطة الإسالة... راودته ضحكة، أو ابتسامة على أقل تقدير، لكنه آثر أن لا يحقق طموح السماء برؤيته مبتسمًا ولو لمرة واحدة، فهو في حداد روحي منذ الأزل، انتبه ليده وهي ما زالت ممسكة بكيس متاعه، حك قفاه مستغربًا، فقد مضى وقت ليس بالقصير على قدومه للمحطة وهو بهذه الهيئة... انتفض رأسه يمينًا يسارًا بحركة ارتجاجية لاستعادة تركيزه، ثم عمد إلى متاعه ليركنه جانبًا في إحدى زوايا غرفته الصغيرة والتي هي عبارة عن كرفان صغير مجهز بحمام ومطبخ وغرفة نوم صغيرة... اتجه بعدها إلى خزان المياه فوجده شبه فارغ فلعن الأعور في سره وضغط بسبابته المصبوغة باللون البنفسجي زرَ التشغيلِ لمحركاتِ سحبِ المياه من النهر، ثم رمى في الخزان كيسًا من مادة الكلور وراح يفتح ويغلق صمامات بمختلف الأماكن... تأمل إصبعه البنفسجي، قضمه بقوة آسفًا ولعن جميع الحكومات منذ الدولتين الأموية والعباسية... كان يشعر بالجوع فعمل لنفسه بيضًا مقليًا وشرب شايًا مرًا، لأصابته بمرض السكر مبكرًا بعد مقتل هنية، فتعايش مع السكر ليقينه أن ملازمته للعراقي بهذا الشكل المضطرد دليل همٍّ أصبح هوية وعنوانًا للإنسان العراقي المستلب.

أنهى أعماله التشغيلية في المحطة مبكرًا وبسرعة غير مألوفة، وكأن وراءه عمل أكبر وأهم، شعرَ بالتعب لأنه هو الآخر لم ينم ليلته الماضية كما يجب، فراودته سنة من نوم أجبرته أن يضطجع لها، فنام حتى جن الليل عليه... استيقظ وغسل وجهه ووقف فوق منصة الإسالة المؤدية إلى أنبوب الماء الذي يسحب المياه من النهر لتصفيتها ونقلها إلى الأهالي عن طريق أنابيب أخرى تم تجديدها في الأيام الأخيرة... تأمل أضواء المدينة التي انعكست بجمالية خاصة على صفحة النهر «للجمال وقت معين

يظهر ويختفي بلا مواصلة فانتهزوا الفرصة لاستشعاره» رنّت عبارة هنية في مخيلته والتي تعلمتها من زوجها ، وهي عبارة لازمته منذ صباه: «كم هي جميلة مدينتي لأنها تحمل جمال أمي»... قال سعيد عبارته فداهمه قطعٌ للعرض البصري بعرض آخر لسينما عينيه وذاكرته بشريط مصور يظهره بعد هروبه من الانضباط العسكري وسماعه لعيارات نارية تابعتها أذناه بجنون... ليلتها مكث في تنورِ جارٍ لهم ليس ببعيد ، ولما كفّت جلبة الانضباط ورصاصاتهم عن العبث في جَرْحِ صمتِ الليل انسحب راجعًا لسطح دارهم كقط خائف من جيش سنوريات مفترسة.

طفى فوق تخوم رؤاه ظل امرأة لا يستدلها... هل هي الجنيّة ، أم الحبيبة إيمان، أم الفنانة سعاد حسني، أم ظل أمه، نعم إنها أمه... وجدها جسدًا داخل لوحة الموناليزا بابتسامتها الحزينة ، وجدها غارقة في بركة دم اصطبغت بلون غير معتاد ، لون أزهر يضج بالعطر الجميل، لكنه يفور كإبريق شاي نسيه صاحبه لحظة غفلة... وما إن وصل عند أعتاب قلبها حتى تحركت وأنَّتْ ، وسمعها تقول وهي تحتضنه بقوة: «افيش يا بعد روحي» ، رَطّب جسدها بدموعه وعمد إلى عباءتها التي غطته بها حين عثرت عليه على شاطئ دجلة فحان الآن دوره ليغطيها بها وكأنه دَيّن وجب سداده... ضياء مصباح مرتبك أنهى تسلسل شريطه السينمائي الثاني، فقد لاح له من بعيد مشحوف للأهالي يقترب رويدًا رويدًا من المحطة ، حيث كان سعيد دائم الحذر من اقتراب المشاحيف من المحطة لأنها تسببت في إحدى المرات بكارثة يوم ارتطمت مقدمة المشحوف بالأنبوب الساحب للماء فانكسر مما أدى إلى انقطاع الماء عن الأهالي ليومين، لذا كان يتلقى توصيات كثيرة من مسؤوليه بالاهتمام بهذا الأمر ومراقبة النهر وإلا كانت نهايته... راح سعيد يصرخ بحنجرة ممتلئةٍ بالدم محذرًا القادم من

الوصـول قرب الإسـالة ، إلا إن الآخر لم يبالـي بصرخاته فواصل اقترابه منزلقًا بهدوء على صفحة الماء حتى وصل ملتصقًا بقواعد ارتكاز الأنبوب.

- السلام عليكم سعيد.

- شعندك هنا؟ ما تدري ممنوع؟

- جيت أسلم عليك.

سـلط سـعيد ضـوء المصبـاح اليـدوي علـى وجـه صاحب المشحوف فتبين أنه عليوي ابن سلمان صاحب المشحوف القديم الذي كانت هنية تمارس فيه جنونها المهزوم.

- توكل قبل لا أسويلي جاينة...

- محتاج مساعدة؟

- لا!!

انسـحب عليـوي بهـدوء حتـى اختفى عن أنظار سـعيد عند ظلال النخيل المتهدل فوق مياه النهر كشعر أنثى في عامها الرابع عشر... جن الليل وبدأت هواجس سعيد تُقْلِقُ راحته متفجرة بأسئلة عديدة وهو يتذكر كلمات جمال كطرقات حداد على صفيحة حديد: «كلمة خليها ترجية بأذنك، كن على حذر، فليلة البارحة لم تعرف عيناي طريقا للنوم».

انطلق مونولوج داخلي في ذات سعيد يحاور هسيس الحشرات، وتكسر أمواج النهر على منصة الإسالة، وهمسات الريح الخفيفة التـي رفعت مـن وتيرة قلقه، حينها تذكـر صديق له كان يعمل حارسًا لإحدى المدارس الابتدائية والذي كان دائم الحديث عن وجود جنيّه في المدرسة تأتي ليلاً وتعمل فتقًا في ملابس الحراس من مكان عضوه التناسلي وتضاجعه وتخرج مترنحة بعد أن تبصق

بوجهـه لثلاث مرات... كان هذا الحارس يردد قصة الجنيّة أينما جلـس... فـي المقهـى، في بيتهم، وهو يمشـي في الشـارع، وهو يواجه مدير المدرسـة عنـد خروجه وانتهاء عمله في الحراسـة، أينما وجدته فحكاية الجنيّه حديثه الوحيد... حتى جُنّ بشـكل رسـمي وانتهى به المطاف في مقبرة جماعية بعد تمشـيط المدن الجنوبية من قبل النظام عقب أحداث الانتفاضة الشعبانية، وبما إن لقوات النظام العسكرية القادمة من بغداد اعتقاد كبير بأن جميـع سـكان المدن الجنوبية يتواجدون عنـد موضع الزائد في الاتهام بمناهضة الحكومة، لذا تعاملت معه على أنه أحد الغوغاء الكبار، وتمثيله المتقن لدور المجنون هو لاستغفال العسكر، فكانـت نهايتـه مع المئـات نزيلاً دائمًا لمقبـرة جماعية لا يمثل اجتماعها إلا هوية جماعية للمسحوقين، للبسطاء، للأبرياء.

رن هاتف سعيد الخلوي الذي اشتراه قبل أيام بعد محاولات كبيرة من الجميع لإقناعه بأهميته في تمشية أمور حياته... الرقم غريب لم يُحفظ في خزانة الأسماء...

- « من يا ترى؟»

- سعيد، آني إيمان....

طَرَدَتْ صورةُ حبيبته إيمان بعض تخرصات هواجسه حينما سـمع صوتها الذي كان يسـحره منـذ صبـاه... كان يروي لأمه تفاصيـل حبـه لإيمان فكانت تخبره بعبارة هادئـة «يمه امَّيْنَه مو إلك»

- هلو حبيبتي.

- يا حبيبتك ولك أهلي راح يكتلوني.

- شلون؟ وليش؟

- ولك صار عدهم علم إنت تحبني... وهسه آني مسجونة بالبيت.

- ومنين تخابرين؟

- من تلفون أخوي محمد بس هو الوياي منهم... ضربوني وشكو راسي.

تجهش إيمان ببكاء حار مما حفز سعيد أن يصرخ بها تاركًا موجات صراخه تسبح في فضاء محطة الإسالة:

- باجر أنهزم بيج لأبعد مكان بالعراق.

علا صوت صراخ إيمان مصحوبًا بضربات أحد أخوتها وهي ترجوه أن يكف عن ذلك لينقطع بعدها الاتصال... يعاود سعيد الاتصال بالرقم الغريب، يأتي الرد بأن الجهاز مقفل... راوده شعور بأنهم اكتشفوا حديثها معه وسينالون منها، لأنه يعرفهم أصحاب سوابق في القتل والإجرام، وكثيرًا ما تسببوا بعاهات للآخرين... كرر كلمة أمه هنية في دماغه عدة مرات ليربطها بجهار لتضخيم الصوت «يمه امّيْنة مو إلك». تصاعدُ الموقف بهذا الشكل الدرامي جعلَ سعيد يفكر بمن ينقذه مما هو فيه... وهنا لاحت صورة جمال الأعور أمام عينيه لعل لديه حل لما هو فيه... التقط الجهاز الخلوي واتصل به... تأخرَ الرد حتى يأس سعيد وحاول غلق المكالمة لكن جمال استجاب أخيرًا وهو يتثاءب...

- شكو؟

- لك جمال إيمان راح يكتلوها.

- ليش؟

- أهلها عرفوا بقصة حبنا.

- ها .. وشراح اتسوي؟

- أعوف المحطة وانهزم بإيمان.

- لك شبيك... تريد تهجم بيتنا؟... إيمان تنكتل إي مو مشكلة

بس المحطة ما تعوفها.

- طوط طوط طوط؟

انقطع الاتصال... يبدو أن جمال غير مصدق بما قاله سعيد واتصاله كان فقط لقتل الوقت لذلك أقفل جهازه للتخلص من إلحاح سعيد فهو يحفظ كل طباعه حينما يريد حلاً لمشكلة ما بطريقة لا تعالج المشكلة نفسها بل بخلق مشاكل أخرى وخاصة في مثل تلك الحالة... كيف لا وهو صديقه منذ الصغر وقد حفظه عن ظهر قلب... سعيد يتلوى كسمكة مسمومة وقد عجز عن إيجاد منفذٍ تطل روحُه منه للخلاص مما هو فيه، وراح يرسم في خياله تفاصيل عملية قتل إيمان من قبل إخوتها... وفي محاولة منه للخلاص من هذه الصور المرعبة اختفى داخل غرفته الصغيرة منسحبًا كوحش أسطوري في أعماق بحر... ذكّى سيجارة وراح يتأمل الماضي بعيون شبقة من خلال موجات دخانها... ما زال طعم القبلة التي طبعها على خد إيمان في صغرهم تتأجج في قلبه، لكن اتصالها الهاتفي جعله ينام على كومة مسامير، كيف السبيل لإنقاذ إيمان؟؟... أسئلة عديدة أكلت منسأته حتى سقط على أم آلامه... ولما أعياه التفكير السلبي بالنتائج تهشمت روحه المعذبة فجعلته يعيش دوامة أطبقت على جفنيه أخيرًا وكأنه استنشق غازًا مخدرًا ليغيب في نومة تمثلت بإعجاز قاهر.

استيقظ سعيد فزعًا إثر صوت ارتطام قوي بالمنصة المائية للمحطة معتقدًا أن القيامة قد حانت... خرج مستطلعًا الأمر، اقترب بحذر من أسفل المنصة وأمعن النظر ليصرخ فزعًا مولولاً: «يا مصيبة المصيبة جثة مرة غركانة مجلبة بالمحطة.. يابويه».

تعثرت قدماه وهو ينسحب قلقًا إلى غرفته، نهض متوجعًا، فتح باب الغرفة، واقفله بظهره، واتكأ عليه، وأغمض عينيه...

غاب خَياله في دهاليز إيحاءات غريبة... «جثةُ امرأة بعباءة سوداء أغلقت منفذ الأنبوب الساحب».. «مسؤول المحطة سيطردني لا محالة»

سعيد يقترب من الجنون رويدًا رويدًا وهو يحلل ما وجده ملتصقًا بالمنصة... «منْ تراها تكون؟.. ممكن أن تكون حمدية التي تعشق غسل أواني الطبخ والملابس على الشاطئ رغم توفر المياه الواصلة لبيتها؟... ربما سليمة التي اعتقد الناس أنها هربت من أهلها قبل سنين بصحبة عشيقها الضابط الموصلّي؟... أو ربما فتاة صغيرة بصحبة زميلاتها في المدرسة القريبة من النهر، كانت عطشى فنزلت للنهر لكي تشرب وزلت قدمها فغرقت وتركتها زميلاتها تواجه مصيرها لوحدها؟... «منْ تراها تكون؟» أكد سعيدٌ تواجد كل نساء مدينته غرقى عند منصة سحب الماء إلا إيمان نفى عنها التواجد ميتة ملفوفة بعباءتها.

قطع تردده وعاد وكرر مطالعة الجثة من جديد، سلط عليها ضوء مصباحه مرتجفًا وهو ينظر باغماضة عينٍ وفتح أخرى، ليصرخ من جديد وهو يقتلع خصلات من شعره قائلاً: «هي... هي... إيمان... خنكوها وشمروها بالشط... آاااخ ولج إيمان تموتين وتخليني لوحدي... أمَّيْنَة... أمونة»

بعد اللطم والعويل وسيل من الدموع اتزن قليلاً وعاوده التفكير بوعي في حل مناسب لمصيبته... ماذا يفعل؟ هل يتصل بالمسؤول ويبلغه؟ لكنه سيكتشف خوفه وتراجع قدراته التي من أجلها تم إيجاد وظيفة له في هذه المحطة وسيتم فصله لا محالة... هل يتصل بجمال؟ سيسخر منه كالعادة؟ وربما لا زال جهازه مقفلاً للآن... لكنه حزم أمره أخيرًا واتصل بالشرطة، وبعد بعض الاتصالات بين المسؤولين والشرطة أتت قوة للمكان

لمعاينة الحادث... استقبلهم سعيد خائف يرتجف، لاحظ أحد عرفاء الشرطة مبالغة سعيد بخوفه فأراد المزاح معه:

- طبعًا راح تكون أنت المتهم الأول واحتمال الإعدام مصيرك.

تقدمت القوة بصحبة ضابط برتبة عقيد شرطة باتجاه المنصة وكأنهم فصيل أسودٍ يروم افتراس غزال بري... وكلما اقتربوا من موضع الجثة يزداد ارتباك سعيد... وما إن شاهد أحد العرفاء يمسك عصا لتحريك الجثة لمعاينتها ورفعها قابل سعيد ذلك بإطلاق ساقيه للريح هاربًا من الجميع لا يلوي على شيء... المهم الهروب والهروب فقط... وقبل أن يصل إلى بيته، الذي هو إرث أمه المتواضع الغافي على شاطئ دجلة، صادف رجلين كبيرين يجلسان أمام أحد البيوت وهما يشربان الشاي ويتحدثان بطريقة بوليسية:

- ما العمل أمام هكذا جرائم؟.

- للتخلص من كل تبعات الجرائم، يجب أن تتخلص من هاتفك النقال أولا وترميه في النهر، وأن لا تنسى أوراقك الرسمية خذها معك.

انطلقا بضحكة هستيرية أرعبت سعيد، مما دعاه أن يتحسس هاتفه الخلوي في جيب بنطاله وهو يتمتم في سره: «ما حكاية الأنهار معي» يذهب باتجاه النهر للتخلص من هاتفه وهو يودع أنهار المدينة جميعًا وداعًا موحدًا.

عاد سعيد لبيته وأخذ حفنة من نقود من طيات فراشه احتفظ بها للنفقة على زواجه من إيمان، ثم التقط أوراقه الرسمية بما فيها جواز سفره الذي استخرجه قبل فترة وجيزة تزامنًا مع جمال الأعور الذي استخرج هو الآخر جوازًا وذلك لنيتهما السفر إلى إيران لزيارة الإمام الرضا بعد أن أصبحت تلك الممارسة موديلاً

لجميع العراقيين والتنافس فيمن يكون له السبق في الزيارة والتفاخر بذلك في تجمعاتهم الشعبية والرسمية.

انطلقت سيارة الأوباما باتجاه بغداد تنهب الأرض بسرعة صاروخ، وهي تقل سعيد بصحبة مجموعة من الشباب الذين يبدو عليهم ومن خلال حديثهم أنهم ذاهبون للهجرة إلى تركيا لإيجاد منفذ للحياة في هذه الدولة العصرية، وهربًا من جحيم وطنهم الآخذ شكل البسطرمة وطريقة تحضيرها وتفسخ مكوناتها... وبعد حديث طويل بين السائق والشباب انطلقت عبارة من سعيد غيرت أجواء السيارة ليكون الحديث أكثرَ جدية: «اكدر أجي وياكم؟».

في الجانب الآخر من المدينة واصل جمال الأعور اتصاله المهووس بسعيد دون جدوى، لا صوت يجيبه غير قصيدة طويلة للنهر وهو يتغزل بأسماكه... كان يريد إخباره بأن الجثة المزعومة كانت لجاموسة سوداء نافقة اشتبكت بها عباءة امرأة تخلصت منها لانعدام لونها إلى أخضر باهت فزهدت بها، فجرفتها المياه عند محطة الإسالة فعلقت بأنبوب السحب... كما أراد جمال أن يخبره بأن إيمان كانت تمثل عليه دور الضحية لدفعه بتعجيل طلب يدها من إخوتها... كُتِبَ على سعيد أن يكون هاربًا، فارًا، طيلة استنشاقه لهواء العراق، لذلك حتى لو علم بحقيقة ما جرى فسيكون على الموعد مع تفاصيل هروب آخر.

حَشَرَ سعيدٌ جسده متكورًا في زورق صغير بين كتل أجسام المهاجرين من سوريا والعراق وهم يحملون بطاقات سفر لعبور خط العتمة نحو مرابع الحياة الماكثة عند الجانب الآخر في اليونان.. رجال، ونساء، وأطفال بمختلف الأعمار جمعتهم الصدفة والرغبة في الخلاص من وحش أسطوري التهم أرواحهم بعنف، وحشٌ

اسـمه الواقع العربي... زورق نزق يمخر عباب البحر بسائق متهور مخمور يضحك ساخرًا من جموع الفئران المتكدسة فوق بعضها وهي ترتجف من شدة البرد وهول الفجيعة... الجميع مغيب روحيًا مشتت ما بين اليأس والرجاء، ينظرون في اللاشيء، إلا سعيدٌ فقد انفصل عنهم محدقًا في امتداد البحر وهو يذوب في عتمة الليل، حينها ولأول مرة شُوهد سعيدٌ مبتسمًا وقد تيقن الآن من عبثية هذه الحياة التي لم تغازل أحلامه مرة واحدة. وفي غمرة غياب سـعيد فـي تلافيف عتمـة البحر التي لم يسـعفها ضياء مصبـاح الزورق الخافـت خوفًا مـن متابعة خفر السـواحل ومكافحـة التهريب، تحدث سعيد بصوت مخنوق أثار فزع الجميع: «ما حكاية الأنهار معي؟ أجيبوني... هل أنا سمكة من غير ذيل؟ فَحَتّم القدر تواجدي بين الماء والطين؟ أجيبوني.. بربكم؟ عليكم العباس جاوبوني؟ شبيكم ساكتين؟ «والآن... أتساءل ما حكاية البحار معي؟».

هـاج البحـر مكشـرًا عن أنيابـه وهو يصـرخ بالمهاجرين: «مـا الذي أتـى بكم إلى مملكتي؟ ألم يخبركـم هذا المخمور عقوبة الجرأة على أن تطأ أرواحكم رقص أمواجي». هياج البحر دفع بالسـائق للغناء باسـتهتار أرعب الجميع جعلهم يعيشون أشد أفلام الجريمة رعبًا، لكنها بدت عادية جدًا لسعيد الذي استسلم كالمُخـدّر... الـزورق يرقص مرحًا وهو ينزلق علـى أمواج البحر معتقـدًا أن صـراخ المهاجرين نابع من مظاهر الفـرح بليلة زفافه التي شاركت بإحياء حفلها أصوات غنائية لأسماك اختلفت طريقة غنائها ما بين الصخب والرومانسية، حتى إن سمك القرش شوهد يتابع الحفل من بعيد بابتسامة متلذذة... أحدُ الأطفال كان يخفي رأسـه فـي حجر أمه، أطـلَّ متطلعًا لهول ما سـمع من اسـتغاثات ركاب الزورق الباحثين عن أمل فصفعهم ألم موحد اختزل كل سنين آلامهم.

«يمه وين احنا رايحين»

اهتز القارب مُحلقًا فوق موجة رعناء فردّت الأم على وليدها بصرخة استغاثة تصدع لها قلب السماء: «يا علي».. الزورقُ عَرِيسٌ راقص، السائق قواد مجنون، الدنيا عاهر رخيصة، المهاجرون نقاط شبحية مسكنها الجحيم أتت تبحث عن موطئ قدم في جنة وهمية، البحرُ خائن عميل، سمك القرش إمبريالي نذل، سعيدٌ أغنية سبعينية من كلمات كتاب مقدس، وألحان موجوع، وغناء متعب، وجدت هذه الأغنية في مياه البحر مسرحًا كبيرًا لأداء ختام مسرحية عبثية، بطلها ذاته المعذبة ليسدل الستار عنها بافتراشه ساحل بحر إيجه وقد اجتمع حوله سرب من طيور السنونو في حلقات مستديرة كناعور يغرف ويبدي... منها ما خمشت وجوهًا، ومنها ما لطمت خدودًا، معلنة أمام كائنات البحر صراحة مصير الإنسان في عالم داعر لا يفقه حديث الأنين... ومن بعيد كان لسرب آخر من طيور السنونو دورًا في هذه المسرحية العبثية وهن يحملن عباءة سوداء قد غادرت لونها إلى الأخضر الباهت، ثم أطلقنها في الفضاء المشبع برائحة الحناء والمسك لتطير بحرية حيث استقرت على جسد النبيل سعيد الذي كف عن الهروب ففقد لقبه «سعيد الفرار»، لكنه راح يتطلع فرحًا من خلل شفافية العباءة، ودون جميع جمهور المسرحية، كان لوحده يشاهد فوق رأسه شبحًا يحوم لامرأة طاعنة في الوجع وهي تنعى بردح جنوبي كل موسىً غريب قد صافح الموج جسده.

ثورة جمهورية

كان لي صديق اسمه (علي) من عائلة فقيرة جدًا ، يسكن مع أب وأم مريضين في كوخ يرقد خفيفًا كريشة طير ، غافيًا على شاطئ دجلة ، مادته الأساسية القصب والبردي ، في مدينة المدن حاضرة التاريخ وشاهدة الجمال الماجدية... كان صديقي علي سيّئًا جدًا في دروسه رغم ذكاءه وفطنته ، ورغم طيبته وأخلاقه الحميدة... لذلك حرضني مستواه الدراسي المتدني على سؤاله وتقصي حقيقة الأمر... أجابني سريعًا وبلا مقدمات:

- أنت أكثر الناس معرفة بعملي ، فأنا طوال النهار مشغول ببيع الجرائد والمجلات؟

- نعم شاهدتك مرة في شارع التربية وأنت تهتف بصوتك المتلاشي: جرائد ، مجلات ، الثورة ، الجمهورية ، ألف باء الوطن العربي... وعزمت على سؤالك حينها عن طبيعة عملك... ولكن نسيت ذلك في خضم انشغالات المدرسة ودروسها أن أستفهم منك الحقيقة.

- عند عودتي إلى البيت أرمي بنفسي وسط الصريفة شبه ميت بعد أن أعد الدراهم في يد أمي.

- ولكن العمل ليس عذرًا ، فكثير من التلاميذ يعملون ودرجاتهم جيدة إلا أنت.

- حقك صديقي... أبوك رجل ميسور الحال وأبي عامل بناء تقاعد عن عمله بسبب سقوطه من سكلة البناء... وبيتنا صريفة تتعرض كل يوم لحريق يأكل جزءً منها ، أو لحماقة الطبيعة

فتجرفها فنعيد بناءها من جديد.

تجادلنا كثيرًا عند هذه الجزئية وتناولناها بعقل ووعي أكبر من أعمارنا.

- هل تقبل التحدي؟

- أي تحدّ؟

- أن تصطحبني معك غدًا لبيع الصحف والمجلات... ونرى لمن الغلبة.

- وفي الامتحان يكرم المرء أو يهان كما يقول أستاذ رزاق معلم اللغة العربية.

وبعد أن رنّ جرس الانصراف بيد فراش المدرسة خرجنا معًا من باب المدرسة متعانقين برفقة مجموعة من الطلاب وهم يرمقوننا بحسد على الحب الذي يجمعنا... حيث اعتدنا أن نغني أغنية سيتاهاكوبيان وسعدون جابر نحب لو ما نحب ونحن خارجين.

- «نحب لو ما نحب يا ابو قلب الرحب»

أغمز له بعيني فيجيبني مبتسمًا.

- الهوى من يخطي العيون يتلكاه القلب.

نتعانق أكثر ونحن نردد « للا للا ..للا للا».

استيقظت مبكرًا في اليوم التالي، وبنشاط الجندي المحارب ذهبت بصحبة علي إلى شارع التربية حيث المكتبات الرئيسية لبيع الصحف، ومنه المكتبة العصرية وصاحبها حيدر الذي كان يعطينا صحف الثورة والجمهورية والوطن العربي وكل العرب على طريقة التصريف بهامش ربح يُعد محترمًا بالنسبة لطفلين وما يفضل من الصحف لدينا نعيده قبل الظهيرة للمكتبة.

- جمهورية، ثورة، آخر جريدتين... عجِّل يا مثقف قبل النفاذ.

وقفت قبالة مصرف الرافدين في السوق الكبير وأنا أنادي بصوت جهوري كان يحسدني عليه حتى قدوري مشجع الشرطة... ومن خلال هذا الصوت ولجت المسرح من أوسع أبوابه.

- كذّاب.. لا يزال لديك الكثير من الجرائد.

ابتسم بوجهي أفندي يرتدي بدلة أنيقة يبدو عليه أنّه معلم... وهي صفة عامة للمعلمين في ذلك الوقت حيث يتصفون بالأناقة والاهتمام الكبير بمظهرهم وشعرهم وملابسهم.

- أيها المشاغب.. سأشتري منك جريدتين.

ناولته جريدتي الثورة والجمهورية. تأبطهما مبتسمًا وغادرني مزهوًا كطاووس، وأخذ يمشي وهو يركز عينيه كمخلب دب في ثنايا الصفحة الأولى... مما أثار فضولي «لم كان هذا المعلم متلهفا لقراءة الجريدة؟ وأي خبر ممكن له أن يحوز اهتمامه بهذا الشكل؟» رفعت جريدة الثورة عن الأرض متطلعًا إلى حروفها الصغيرة: «رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة يهنئ الإمام الخميني لإعلانه الثورة المباركة في إيران» .. كان أسفل الخبر صورة للخميني وهو يحيي الجماهير في مطار طهران بعد نزوله من الطائرة الفرنسية التي أقلته من باريس إلى طهران.

كانت صحيفتا الثورة والجمهورية من الصحف المميزة والمهمة لدى القارئ العراقي لأنهما من الصحف الرسمية للدولة والحزب هذا أولاً، وثانيًا لما تتضمنه صفحاتهما من موضوعات مهمة تدخل في صلب حياة المواطن، وفيها أبواب تهتم بشرائح المجتمع المختلفة والأهم ليس لها منافس أبدًا لطبيعة الحكومة والدولة وتوجهاتها الأيديولوجية. مرت ثلاث ساعات وأنا أقف مزهوًا فوق كدس الصحف والمجلات يعترضني فرح غامر بتجربة

فريدة أعطتني شعورًا بأني إنسان مثمر.

طاف خيال أبي كملاك بجناحين من مصابيح فوق رأسي وهو يشد على يدي داعمًا وهو يبتسم لي ابتسامته المعهودة التي ما فارقت محياه... أزاح هذا الطيف الجميل لأبي وجهُ رجل قاسي الملامح بشوارب كثة تهدلت على شفتيه وأخذت منحدرًا على جانبي فمه الأزرق الذي صبغته سجائر سومر المعروفة آنذاك.

- أعطني الثورة.

- ومعها الجمهورية أيضًا؟.

قلتها بابتسامة خبيثة لتشجيعه على شراء عدة نسخ.

- لا ..

- أستاذ الثورة رخيصة والجمهورية رخيصة أيضًا.

اهتز شاربه بعنف وحدق بي بنظرة غاضبة طويلة الأمد كدت أفعلها على نفسي.

- والله .. لولا عمرك الصغير لجعلت الثورة والجمهورية كفنًا لك... ابن القحبة.

لا أعرف ما الذي قلته حتى يغضب مني هذا الرجل بتلك الكيفية... أطال النظر بوجهي، لملم أصابعه، وكور قبضته، ثم أخذ الصحيفة دون أن يدفع ثمنها... أردت أن أركض خلفه أطالبه بالمبلغ لكن منظر شواربه وهي تهتز شل حركتي، فجلست قبالة الصحف وأنا متحسر على خسارتي ٢٥ فلسًا لكنني استعدت ثقتي مجددًا بقدوم العديد من موظفي المصرف الذي أقف قبالته وهم يتسربون لانتهاء أعمالهم فراح جيبي يشعر بالاختناق والانتفاخ لوفرة العملة الحديدية التي دسستها في طياته وأنا أواصل ندائي جمهورية ثورة ألف باء.

تحققت معجزة كبيرة ببيعي كل الصحف والمجلات، غبطني الجميع من زملاء المهنة لهذا الجهد والطريقة المثالية في نفاذها حتى صديقي علي فرح فرحًا كبيرًا. وعندما عدنا لحيدر صاحب المكتبة ففر فاهًا لنفاذ ما لدي من صحف فكافئني ب ٢٥ فلسًا زيادة لربحي، ذكّرني هذا المبلغ بجريدة الثورة التي اغتصبها مني صاحب الشوارب المعقوفة.

- كم هو المبلغ الذي ربحته يا علي؟

- كثير.. خير من الله.

- أنت تكذب عليّ يا علي.

فرّت دمعة ساخنة من عينيه كحبة لؤلؤ جعلتني أمسكه من كتفيه وأغرس وجهي في تفاصيل وجهه صارخًا:

- علي؟

أجابني وهو يمسح دموعه:

- هذا يعني... أن لا عشاء سيجمعنا اليوم مع أبي وأمي.

جلسنا على مقدمة معدنية لأحد المحلات في الطريق إلى منطقتنا لالتقاط الأنفاس بعد التعب المرير والكبير. أخرج علي كيسه الفقير من النقود بيد عاجزة مع شيء من الحرص فالكيس بالنسبة له محفظة خاصة يضع فيها ما يتحصله من بيع الصحف.. حاول إفراغ ما في الكيس من نقود وهو يقول..

- لم أحصل إلا على هذه التفاليس وهذا ما لا يروق لأبي.

أمسكت بالكيس قبل أن يفرغه..

- سأخرج ما بجيبي ولتخرج ما بكيسك إخراج رجل واحد.

ضحك عليٌ لأنني ذكرته بفلم الرسالة الذي طالما شاهدناه من على شاشة تلفزيوننا أيام المناسبالت الدينية... أفرغت ما في

جيبي وأفرغ ما في كيسه من نقود... عَلَتْ كومة معدنية كجبل صغير يسر الناظرين... اندهش عليٌ لهذا المنظر وقال بإعجاب:

- أتعرف يا صديقي... قد حصلتَ أنت على ما أشتغله في أربعة أيام متتالية.

- علي... اعطني كيسك، واذهب هناك راقب لنا الطريق خوفًا من الأطفال المشاكسين.

دسست كل القطع المعدنية في كيس علي حتى امتلأ عن آخره وأبقيت قطعتين لي كانت لهما خرخشة في جيبي وهو المطلوب حتى لا ينتبه علي بأني وضعت النقود كلها في كيسه فربما يرفض اعتزازًا... نظرت جانبًا وجدت بعض الحصى الصغيرة... التقطتها ونفخت بها جيبي حتى تصبح القصة أكثر إقناعًا... حركت قدمي باتجاهات مختلفة لاختبار رنين القطع النقدية مع الحصى فكانت النتيجة مذهلة... ناديت على عليٍ بأنني أتممت القسمة:

- خذ يا علي.. هذه حصتك.

- ولكن.. هذا كثير.

- خذ، أبوك ينتظرك، وإخوتك تراهم جائعين الآن.

تحولت عينا علي إلى قطعة دم واجهش بالبكاء... التقطت كفّه الأيمن وضعتُ الكيس فيها وكورت أصابعه بقبضة ملاكم.

- والآن حان موعد ذهابنا كل إلى بيته.

- والرهان؟

- أنا عند رهاني.

مرت أيام الدراسة سريعًا، ونجحنا ونسينا الرهان وانتقل

علـيٌ إلـى منطقة أخرى بعيدة جـدًا منعت تواصلـي معه مما قرح فؤادي وقتل ذكرياتي بسكين صدئة، والسبب في انتقالهم هو عملية الترحيل القسري التي مارسها أصحاب الشوارب المعقوفة حيث أزالوا بيتهم، عفوًا كوخهم، أو صريفتهم، سقف من قصب كان يقيهم بعض الشيء من شمس لاهبة وأمطار غزيرة لا ترحم... وقبل إزالة معالم سكنهم أمروهم بالمغادرة فورًا... لكن المصيبة فـي الأمر أنهم بنوا على أنقاض هـذا البيت الموجوع فرقة حزبية أكلـت كثيرًا من جرف الحياة لأبناء الماجدية، والأشـد إيلامًا أنهـا حرمتنـي من صديق طفولـة يتهادى في مشـيته كنهر دجلة حينمـا ينحدر صوب البصرة وهو يعلم أن موته في متاهات البحر ماء مالح.

تسع سنوات مرت وأنا أجدد خساراتي بفقدان صديق بموت عـادي، أو موت فـي جبهات القتال الطاحنة للإنسـانية ومع كل صرخة حزن أطلقها جزعًا على من فجعت بهم من الأصدقاء أغلفها بلعن صدام والخميني حتى أصبح اللعن ثقافة لي.

انتهت الحرب... أعلنها صدام بيانًا للبيانات بلكنة الانهزامات، وأعلنها الخميني متجرعًا السـم الزعاف لنهايتها القسـرية... وما بيـن إعلان هـذا وبيان ذاك اسـتبد العوق فـي أرواح المواطنين، وفاحت رائحة عفن زوجة الشهيد، وانتشر الأيتام تحت إمرة القواد والميكانيكي والسـائق وما تفتق عنهم مـن مهن تمتهن الإذلال والتصاغر والانحراف.

اسـتيقظت صباحًـا وعلـى عجل توجهت إلى السـوق لشـراء جريدة الجمهورية أو الثـورة للحصول على معلومات أكبر لنهاية الحرب... وفي طريق سيري ناحية مكتبة حيدر لشراء الجريدتين جذبنـي عند نفس موضع تجربتي الوحيـدة في بيع الجرائد، ثمة

صبي بعمر الثامنة وهو ينادي:

- ثـورة... جمهوريـة... آخر جريدتين عجّل يـا مثقف... الحك يا متعلم.

استفزني هذا الصوت والطريقة التي ينادي بها ووقع الكلمات التي كانت من تأليفي... رباه من عسـاه أن يكون؟ إنه يذكرني بطفولتي وكأنه أنا... هل ممكن أن يكون الشبه إلى هذا الحد... كأننـي أعرفه منذ آدم، ونوح، وشـيت، وصالح، وعلي ابن أبي طالب... سـؤال أوجع قحفة رأسي من عساه يكون؟... أقتربُ منه وأنا أشبه بطائر يطير بلا جناحين إنما هواجسه هي من تطير به:

- أعطني الجمهورية.

- ومعها الثورة؟ الجمهورية رخيصة... والثورة هم رخيصة...

صعقتني كلماته... تلفتُّ حولي بعينين من وجل:

- إياك وأن تكرر ما قلت لي لأحد آخر أفهمت... ما اسمك؟

تردد في الجواب وهو يعطيني الثورة والجمهورية:

- كاظم...

أول الغيث قطر، اسمه يواطئ اسمي... شعرت براحة وأنا أنظر إلى عينيه العسليتين... أعطيته مبلغ الجريدتين.

- أتعرف يا ولد، اسمي كاظم أيضًا.

استبشر كاظم الصغير وتهللت أساريره:

- كان أخـي يحدثني عـن صديق له، اسـمه كاظم... كان يحبه جدًا.

- هل تعرفه؟

- من؟ كاظم؟ لا... بعد أن ترك أهلي بيتهم...

توقف عن الحديث وهمس بصوت واطي جدًا يكاد لا يُسمع:

- طردنا الحزب من بيتنا في الماجدية.

- وما اسم أخيك؟

- علي...

تَطوّحتُ قليلاً لسماع الاسم... وكأنّ الولد قد أمسك بسوط من مسامير فأثخنني جلدًا ، وراح يجرني في أزقة المدينة زقاقًا بعد آخر، حتى عاد بي إلى موضعه أمام الجرائد... استعدت بعضًا من توازني وتركيزي بعد أن سلّم عليّ أحدهم.

- العب بيها انتهت الحرب!!!

في إشارة منه إلى إن الحرب لن تطالني، وهو لا يعلم أن هناك قوة قهرية تحفز هرمونات خاصة لعجن أرواحنا في حنين مفرط لتذوق طعم الحروب التي نهشت أهلينا فبات الفضول يتقمص تطلعاتنا لاستشعار معنى الحرب.

- وين هو علي هسه؟ بيا منطقة؟ شخلص من دراسة؟ أريدك أن تأخذني له.

- وين آخذك؟ للنجف؟.

هنا دق أحدهم مسمارًا في قدمي اليمنى، وألفًا في اليسرى، وفقأ الآخر عينيّ، وانتزع قلبي ثالث وهو يفري أنسجته بشغبِ مجنون.

- ليش؟

فرّت من عينه دمعة تدحرجت ككرة بقفزات متعددة ذكرتني بدمعة علي... أحسست بحرارتها وهي تنطّ على وجنته الملوحة بشمس خائنة.

- استشهد قبل أسبوع والبارحة رفعوا الجادر.

كل شيء فيّ مُخدَر إلا من مجدٍ زائف... أرى الكون بعين

مثكول وهو يمشي على عكازتين أكلتهما الأرضة حتى سقط فسقط كل شيء.

- عمو منو أنت؟

أخرجت ما في جيبي من نقود بيد مرتبكة ترتعش كسعفةِ نخيلٍ في يوم عاصف... سقطت قطعتين على كومة الجرائد أشرتَ له بفتح يديه... وضعت حفنة النقود في يده والتقطت القطعتين.

- هذه حصتك وهذه حصتي..

- أستاذ منو أنت؟

- سنلتقي هنا أليس كذك؟

- منو أنت... أستاذ؟

- ستعرفني عندما تزور أخيك علي وهو من سيخبرك.

قلبت القطعتين النقديتين في يدي دسستهما في جيبي مبتعدًا وأنا أمسح دمعي بظاهر كمي كالأطفال... مرددًا :

نحـب لـو ما نحب يا ابو قلب الرحب .. الهوى من يخطي العيون يتلكاه القلب للا... للا للا للا.

الخريف يمكث طويلاً

تخلى الليل عن بعض عتمته مرغمًا وهو يكابر محتطبًا بقايا ظلمة تلفع بها منذ نزوات الشمس الأولى، لتختفي معالم الأشياء التي صنعها انزياح النور بجمال خاص... في تلك الأثناء تشابكت وتلاقحت تكبيرات الأذان لصلاة الفجر من جامع إلى آخر، وكأن سفيفة ديناميت تناسلت شرارتها لتتفجر أصابعها إصبعًا تلو آخر بفعل تكبيرة «الله اكبر» وهي تتسرب متزحلقة نحو مسامات جدران البيوت، منحدرة إلى آذان الجميع توقظهم بعنف... منهم من استيقظ للصلاة، وكثير منهم لمصالح أعمالهم طلبًا للقمة متواضعة مشوبة بالذلة أصبح الحصول عليها في هذه الأيام كمن يقتلع سنًا دائمًا من تجاويف فم سمكة قرش غاضبة صامت طويلاً عن فرائسها، يجمعهم ترديد كلمة توكلنا على الله وهم ينظرون رافعي رؤوسهم بخط وهمي إلى اللاشيء رغبة في استجداء رزق وستر وعافية في أوطأ عطاءاتها.

خرج محمد الأعرج ابن الخامسة والثلاثين من داره العشوائية خلف السدة الترابية وهو يحلم برزق متواضع يناله من عمله في «علوة الخضار» بالتقاط المتناثر من الخضروات والفواكه من العربات والسيارات الداخلة والخارجة، وعمله هذا برضا الجميع طبعًا، بما فيهم صاحب العلوة وبقية التجار... تمثل هذه الخضروات الملتقطة رزقًا يعود به لصبيته الخمسة الذين أنجبهم دون توقف خلال خمسة سنوات زواج، وكلما رُزق بمولود جديد يتكلم القدر نيابة عنه وهو يرد على منتقديه من الأقارب والحاسدين من جيرانه لهذا العدد الكبير من الصبية، رغم وضعه المعيشي

المتردي بعبارة «اللّه يرزقهم».

رفع محمدٌ البابَ العاري من أي ارتباط بواجهة البيت، ثم أعاده متكئًا على مسمى سياج مع زفرة حارقة خرجت من فيافي حزنه العميق... تم وضع هذا الباب فقط ليقي زوجته أثناء ممارستها لواجباتها البيتية من نظرات فضوليةٍ يطلقها المارة وهم يمرون من أمام داره المتواضعة جدًا ، والتي هي عبارة عن غرفة وباحة تجمع السبعة افراد يظلهم سقف أدمن العويل.

حث خطاه مسرعًا ناحية العلوة، والقمر يقتفي أثره ككلب ربطت عنقه بحبل جلدي يسير الهوينا خلف سيده الثري وهو يكشف عن نواجذه مبتسمًا.

لاحت مشارف العلوة فانسحب القمر مودعًا محمد الأعرج الذي سُرّ كثيرًا ما إن وصل مكان عمله، حيث شاهد الازدحام في كل شيء، سيارات بمختلف الأحجام والماركات، بَشَر بمختلف الأجناس والأعمار والهيئات، خضر وفاكهة منها المحلي والمستورد تلمعُ من داخل الصناديق المعبئة بأشكال فنية مختلفة... تسربت إلى أنفه رائحة غريبة تحمل أطيافًا من صراخ ونحيب، رائحة على غير ما اعتاده حينما يدخل العلوة... وقف قليلاً يحلل طبيعة هذه الرائحة إلا إنه عزاها لفساد بعض المواد التي لم يتخلص منها العاملون القائمين على تنظيف العلوة بعد كل يوم عمل.

حاول نسيان الأمر وحصر تفكيره بما سيحصل عليه من المواد المتناثرة من العربات لكنه عاد للتفكير بتشاؤم بعد أن وجد الجميع رغم حركتهم الدؤوبة النشطة في الشحن والتفريغ، والبيع والشراء، وارتفاع أصوات الدلالين والكسبة، وجدهم وكأنهم يحلقون في عوالم لا تمت إلى يومهم الغافي على وسائد

المجهول بأية صلة.

سلم بتحية (قواكم اللّه) ردوا عليه دون أن ينظروا في وجهه وكأنهم يسلمون على ظل أو خيال لا تستبين معالمه... شرب شايًا على حساب صديقة جار اللّه صاحب العربانة التي يجرها حصان هزيل لم يشبع بطنه من حفنة شعير.

- مالي لا أرى نثار خضروات أو فاكهة كالعادة؟

قال محمد وهو يمسك بكيسه الأبيض بقوة والحسرة تكاد تقفز من عينيه:

- لا أعلم... يمكن أهل العلوة نكثوا معاهدتهم معك!!...

رد جارُ اللّه وهو يرشف ذؤابة شاي فقد طعمه لتكرار غليانه:

- لا خويه جار اللّه... صاحب العلوة، والفلاحين، وجميع من هنا، يعلمون تمام العلم بضائقتي المعيشية، ويضعون في الحسبان وضعي الصحي، وهم من سمح لي بالتقاط ما يتساقط من العربات والسيارات و... و... و... وأنت سيد العارفين يا جار اللّه بأنني أكتفي بالقليل وأعود للبيت مبكرًا... ضحك جار اللّه طويلاً حتى بانَ لسان المزمار خلف أسنان تهرأت مصطبغة بصديد السجائر.

- يا بعد أخوك يا محمد، يحتمل أنهم يدخرون ما يتناثر من الخضر لرجل آخر أكثر منك كفاءة.

- ومن هذا الذي يريد أن يقطع لقمة أولادي.

انتفض محمد معترضًا، نط جار اللّه من عربته وهو يقول:

- لقد أقبل رزقك ها هي باذنجانة ناضجة سقطت من عربة الستوتة... وهناك حيث قدم تلك السيدة المتشحة بالسواد رأس خس ناضج، التقطهم سريعًا قبل أن تسحقهم بقية العربات.

هرول محمد فرحًا وهو يضع الباذنجانة في تجاويف الكيس

لتختفي في بياضه مستسلمة، التقط عود خيار، رمانة، عرج على رأس الخس .. وهكذا عادت أساريره تنفتح على فضاء اللقمة العسيرة المنال.

رفع محمد رأسه ناحية شاحنة كبيرة اقتحمت العلوة محاطة بهالة كبيرة أعدمت أشعة الشمس الصافية، تسرب شيء ما بشكل سكين حاد في فيافي صدره... تدحرجت تفاحة حمراء من مصدر مجهول حتى وقفت معترضة طريق الشاحنة، تابعها محمد بنظراته كظل متحرك، حاول أن يلتقطها قبل أن تطالها إطارات الشاحنة، لكن السائق الذي بدا متهورًا وهو يبتسم ساخرًا من محمد وطأ التفاحة الحمراء مسرعًا، وكأنه على معرفة بمحمد وعوزه، فحزم أمره على أغاضته.

تأمل محمد التفاحة بحزن كبير... كَمَن فقد عزيزًا عليه... وهو يبصرها وقد أصبحت أثرًا بعد عين، ولسان حاله يقول: هكذا نحن نُسحق كل يوم أيتها التفاحة منذ أن التهمك أبونا آدم ذات شهوة ألقت بظلالها القاتمة على أرواحنا الغضة... أرسل محمد نظرة توبيخ ناحية السائق الذي أنكر معرفته بمصير التفاحة برفع يديه وكتفه مع ميلان رأسه جانبًا، توجس محمد خيفة منه وراح يواصل توبيخه بنظراته، أجاب السائق وهو يتلاعب بمقود الشاحنة بضحكة ساخرة صفعت وجه محمد حتى تردد صداها في أرجاء المدينة، فأزاحت باب بيته، واخترقت جدران الغرفة الوحيدة بأنياب تحفر خندقًا عند قلب الزوجة الغافية وسط كومة لحم، تراكمت قطعها، الواحدة تعلو الأخرى في عشوائية عكست منافي الروح الماثلة طبقات أكسبها عدم التنظيم جمالية ملونة ببراءة افتقدها الجميع في ظل ربيع مجتمعي مزيف.

علا صوت انفجار مدوي أماط الستار عن مسرحية الموت

الماكث في حياة الناس كمسمار دقه مجنون فتراجعت جميع مفكات المسامير أن تحركه عن مكانه أو تحتال عليه للخروج والذهاب بعيدًا. تناثرت الفواكه والخضروات وهي تختلط بلحم ودم الناس الكسبة، والفلاحين، البسطاء، والحمالين، وكأن المسخ صاحب الشاحنة يقول لمحمد: «هيت لك، ها هو نثار الأطعمة دونك، اجمع ما طاب لك مثنى وثلاث ورباع، واحقن تجاويف دارك بخزين لا ينفذ أبدًا ليسد حاجة أحفاد أحفادك».

انجلى المشهد عن جارالله بلا رأس وهو يحتضن رأس حصانه المنفلق الهامة، وذباب جوعان حد التخمة يغازل دمهم الذي توحد بفصيلة دم اسمها الموت زائد... تساقطت النجوم وهي تكفن قطعًا من لحم عجزت الملائكة أن تقرنها بأصحابها حتى بدا الميت واحدًا وكأنه مارد كبير يحمل رؤوسًا عديدة وقلوبًا كثيرة وآلاف الأيادي والأقدام والعيون... كل شيء في مسرح الجريمة تشظى بعشوائية معلنًا عن موت أزلي أبدي لأناس طالما حلموا بحياة تكتنفها جلسة أحباب عصيرة يوم قائظ في فضاء مكشوف يتقدم دارهم الطينية، واستكانات الشاي ولفائف التبغ تدور عليهم مع ضحكات على نكات سُمِعَتْ كثيرًا حتى حُفِظتْ عن ظهر قلب... كل شيء تحنى بخضاب الموت القهري... ظهر القمر رغم منعه من الدخول إلى ساحة الانفجار وهو يصرخ لاطمًا خدوده الوردية: «محمد وين... محمد وين».

زوجة محمد سمعت بخبر التفجير الإرهابي في مكان عمل زوجها، صرخت، قلعت خصلات من شعرها الفاحم كليلِ المساكين، شقت جيبها، انتشلت صغارها من فراشهم فقطعت أحلامهم البريئة في أكل الحلوى ومداعبة كرة جلدية رخيصة الثمن... انطلقت بهم حيث مكان الانفجار لتبدأ سيرة جديدة من التقاط المتناثر من بقايا أجساد الموتى... وزعت الأكياس

البيضـاء علـى أطفالها وراح الجميع يطأطئ رأسـه للأرض لتناله أرزاق السـائق اللعيـن الذي سـخر من محمد الأعـرج، في خضم اختـلاط الأجسـاد المقطعة أوصالاً... كانت عائلـة محمد تمنّي النفس ولو بقطعة لحم تبخرت من جسـد أبيهم... القمر بح صوته من العويل: «محمد وين؟... وين محمد؟...» فأتاه الجواب سريعًا من زوجة محمد وأطفالها وهم يجتهدون في جمع المتناثر بقلوب تنز وجعًا... هذا يقول: هذه يد أبي، والأخر: هذه عينه، وزوجته تقول: هذا قلبه، وهم فرحين برزقهم الوفير الذي لم تنقطع معالمه حتى يومنا هذا بتناسـل يومي لصورة ماكثة في الخيال، صورة تجمع محمد وزوجته وأطفاله، وحميد وحصانه الجائع، وسائق الشاحنة صاحب الضحكة المميتة.

العرضحالجي

ارتشف «سوادي» كاتب العرائض في المحكمة الشخصية في الرصافة ثمالة اسْتكان الشاي الغافي بين أصابعه مليًا وهو يتطلع لبقايا السكر المستقرة في قعره، والتي لم يذيبها كثرة تحريك الملعقة الصغيرة بنغمة مألوفة للجميع... عزف منفرد على آلة الروح طالما أدمنته ملعقة سوادي لقتل رتابة حياته الهامشية، مما يدعو زملاءه العرضحالجية لتنبيهه بعبارة «سوادي... احذر، شايك تحول إلى مربى تمر».

تلمَّظ بلسانه ماسحًا أطراف شفتيه لامتصاص حلاوة تركها الشاي مع ذرات سكر عَلِقَتْ بشواربه الملونة باصفرار شابَهُ لون بني نتيجة لإفراطه في استنشاق السجائر المحلية.

جلس سوادي متكئًا على يدين مضمومتين خلف رأسه الكبير وهو يتطلع في المارّة الذين يسيرون بتقاطع مع بعضهم كنمل غزا قطعة سكر... جردهم من ثيابهم، اخترق أذهانهم، وراح يحدث نفسه بصوت مهموس يسمعه من كان قريبًا منه: «من منكم سيجلس أمامي لأكتب له عريضة بخطّيَ الجميل؟ فقلمي مصدر للفأل الحسن!!... ربما هذا الشاب الأنيق سيكون من نصيبي؟ أو ذاك الشيخ؟ أو تلك العجوز؟ أو هذه الشابة المحنّكة؟».

ساعة بغداد تجاوزت الثامنة صباحًا والمحكمة ما زالت مُوصدة أبوابها للآن والناس في تقاطر مستمر كزخات مطر على كُتَّاب العرائض، إما لكتابة عريضة، أو لاستشارة قانونية، أو للحصول على اسم محام جيد يُنجز لهم قضاياهم. أصبح موقع سوادي في هذا الصباح مكانًا محظورًا لجميع المراجعين فتراهم

يتحاشونه متجهين لزملائه القريبين منه وكأنهم اتفقوا قبل وصولهم للمحكمة على إغاضته. تأفّفَ لذلك الأمر وراح يرمق زملاءه بعين الحسد وهم يحفظون الآلاف من الدنانير بشكل متكرر في مجرات مناضدهم، طفق يحدّث نفسه بما يشبه الهلوسة والهذيان: «الأمر لا يخلو من مؤامرة، سأعرف عاجلاً منْ خطّط لها ونفذها».

بينما هو يضرب أخماسًا بأسداس في تحليل ما يمر به من جفاء المراجعين، طرق سمعه حوارُ أحد المراجعين مع كاتب عرائض يجاوره وهما يتجادلان على أجرة العريضة.

- لم أطلب منك سوى ألفين!.

- وأين هي الفلوس؟ حتى أعطيك ما تريد.

- أين هي الفلوس؟!!!... وأنت تأكل بأسماء وهمية في البطاقة التموينية منذ عشرين سنة.

- الحمد لله... لقد صدر عفو عن جميع المخالفين، وسأتخلص من مسؤوليتها قريبًا... بربك هل هناك عراقي لم يمر بمصيبة العوز والحاجة؟.

- أهووو... عوز، عوز... جميعكم تتحججون بالعوز.

- منذ أن سقط رأسنا في بالوعة الحياة ونحن نعيش تحت سيطرة حكام جائرين، حرمونا اللقمة.

- تتكلم بالسياسة؟ حلو!!!... تشهد المدينة هذه الأيام تظاهرات ضد الحكومة والمحافظ، أخرج متظاهرًا لعلّك تحصل على من يسمعك.

- جميع أيام الجمعة الماضية، كنت متقدمًا المتظاهرين.

- لقد أوجعت رأسي... أتدفع ما أطلبه منك؟ أم لا؟

قال كاتب العرائض وهو يمسك بملف المراجع مهددًا :

- لك ما طلبت وأمري إلى الله... لكن... أنتم أيضًا بحاجة إلى حملة تغيير جذري.

انتزع الزبونُ الملفَّ من بين يديّ العرضحالجي، وأخرج ألفَي دينار، ورماها على المنضدة، فتلقفها الآخر بشَرَهٍ غريب وكأنه ربح جائزة كبيرة، ثم استدار ناحية سوادي متسائلاً :

- سوادي بروح أمك؟ هل تعتقد أن من الممكن لهؤلاء أن يغيروا شيئًا من واقعنا؟.

- شباب مغرور بصحته.

رد سوادي بسخرية وجزع مع نوبة سعال، وكأنه يعلن موقفه الصريح من التظاهرات، وهو موقف تميّز به منذ أول شرارة احتجاج في تاريخ العراق... فهو لم يؤيد الخروج على السلطة منذ أن وُجدت الدكتاتورية والجور الحكومي... انقطع سوادي متعمدًا في مواصلة الحديث مع زميله، لإيمانه بأنه حديث غير مُجدي، فعمد إلى أحد مجرات منضدته لإخراج بعض الأوراق كي يبعد زميله عن الخوض بحديث آخر معه بسبب نقمته من عزوف الزبائن عن الاقتراب منه... وما إن رفع رأسه حتى صفعته صورة امرأة تتطلع إليه كقمة جبل لواد سحيق... تطلع في تفاصيل وجهها فاغرًا فمه.

امرأة بجمال رهيب تشبه بنت المعيدي صاحبة الصورة المشهورة والمعلقة في غرف نوم الكثير من العوائل العراقية، حيث بدت تلك المرأة كفلْقة قمر وهي ترتدي الحجاب، وعباءة إسلامية راجت كثيرًا في أوساط النساء في أيام التسعينات ولا زالت تحظى برغبة الكثير منهن... وبعد لحظات من التدقيق في تفاصيل جسد المرأة مسح من أمامه صورتها وذهب بتفكيره ناحية الألفَيْ دينار التي انتظرها طويلاً والتي سيأخذها منها بعد

قليل.

- تفضّلي...

- أريد أن أرفع قضية طلاق...

- حاضر... لكن، لماذا؟

- يحتسي العرق كثيرًا.

- جميع العراقيين يحتسون العرق ولكن بطرق مختلفة.

كلمات سوادي فتحت صنبور لسان المرأة فراحت تتقيأ حكايتها له بطريقة درامية حرّكت فيه تعاطفًا استجابت له عيناه فاغرورقت بالدموع... مسح سوادي دمعته بعقلة إبهامه، وطمأنها بكلمات مقتضبة وهو يخبرها بأنه سيوفر لها المحامي الجيد وستكسب القضية، لأنه محاميٌّ لا يؤمن بالهزيمة وستسعد بالخلاص من زوجها.

بعد عودته من المحكمة إلى بيته نام سوادي على بطنه كالعادة وهو يتابع ما تعرضه القنوات الفضائية من على شاشة التلفاز، ومن يراه على هيئته تلك يعتقد أنه مشدود بكل تفاصيله لما يعرض أمامه من برامج ومسلسلات... لكن الحقيقة غير ذلك فهو غارق حتى أذنيه في تأمل طيف الزبونة التي ترغب بالطلاق من زوجها، وهو يمرر أصابعه على تفاصيل وجهها القمري مفتونًا بجمالها، حيث تمّلكه شعور خفي اتجاه هذا الملاك الذي أجبره أن ينطق بكلمة «أحبك» في سابقة غرامية لم يمر بها قلبه طيلة أيام حياته.

- كان يضربني بقسوة، يشتم أبي المتوفي، يحتسي العرق أمام بناته، تصور يا أخي كان يأتي ببنات إلى بيتي بحجة تعليمهن أصول الكتابة... وهذه المرة الثانية التي أكلّف بها محاميًا للترافع في قضيتي بعد فشل الأول.

قطعت هذه العبارة للزبونة سلسلة تأملاته الهائمة في خارطة وجهها مما اضطره للجلوس معتدلاً مواصلاً استرجاع حديثها وهو يتكأ بذقنه على قبضة يديه.

غرق سوادي في تحليل قضية الزبونة دون استغاثة لطلب النجدة بعد أن عرف من لسانها تنحي المحامي الأول عن مواصلة مرافعته بعد تلقيه رشوة بمبلغ جيد من زوجها ، مع اكتشافه أنه شخصية فنية وأدبية فهو كاتب معروف وله مؤلفات عديدة وجمهور كبير ، والمؤسف أن المحامي كان أحد معجبيه ، مما جعله يتعاطف معه... وقبوله للقضية أتى بسبب أن الكاتب كان يقدم نفسه في كل أعماله باسم مستعار لذا لم يلحظ المحامي ذلك منذ الوهلة الأولى لكي يرفض القضية مباشرة مجاملة للكاتب... إلى أن التقاه وهو يعرض عليه الرشوة والتي قبلها بكل يسر مؤكدًا تعاونه مع الكاتب مع إبداء إعجابه الشديد بما يكتب وبما يطرح من أفكار تحررية من على شاشات التلفاز لكنه أي المحامي فوجئ بهذا العرض المخزي من قبل الكاتب الذي لا يتناسب مع سابق مقولاته وأطروحاته الأدبية والفنية... كما كشف زيفه في مطالباته الدائمة من خلال التظاهرات الأسبوعية في ساحة التحرير للحكومة والبرلمان بالديمقراطية وحرية المرأة ومساواتها بالرجل حقوقًا وواجبات... ومراعاة للكاتب من قبل المحامي اكتفى بمبلغ الرشوة وانسحب من القضية مختفيًا كالسراب وهو يقول: «لا غبار على حقيقة سفالتي فنحن معشر المحامين نقلب الباطل حقًا والحق باطلاً من أجل المال. لكن هذا الكاتب والذي صدع رؤوسنا بدفاعه عن حقوق الإنسان ووجوب إنصاف المرأة ، صدمني بقوة وأيقنت أننا أكثر شرفًا منه».

تحمّس سوادي بقوة لهذه القضية بعد سيل المعلومات

الصادمة التي سمعها مع شبق وهوس سكن قلبه اتجاه هذه المرأة التي لم يخف عليها سلوك سوادي الغريب... هذا الحماس حرّض سوادي للخروج ليلاً وهو يتعثر بخطواته لتداعي بصره، متجهًا لأحد المحامين الشباب واسمه جميل والمعروف بفطنته وشجاعته ووسامته أيضًا ومقبوليته من قبل القضاة في المحكمة، وأوصاه بأن هذه المرأة قريبة له فعليك بمراعاتها... وفعلاً ترافع جميل عن زوجة الكاتب لكنه واجه فريقًا من المحامين يدافعون بشراسة الخبثاء المعروفة عن المحامين اللاأسوياء، مما ختم الحكاية بنشوز الزوجة وعدم احتفظاها بأطفالها، وبقي الكاتب جاثمًا على صدر الحياة يمارس دوره التخريبي في المجتمع من خلال أنانيته المفرطة مع زوجته، والتنصل عن وعوده في قيادة التظاهرات بالمطالبة بالعدالة الاجتماعية وإنصاف المرأة.

وفي عصرِ يومِ جمعةٍ خرج سوادي بصدد إنجاز مهمة تتعلق بعمله فوجد الشوارَع تكتظ بالمتظاهرين من الناس، تمشي بما يشبه السيل المنحدر من قمة جبل، وهي تهتف بشعارات تطالب الحكومة بإنصافهم... وجد نفسه حينها منقادًا لهم بيُسر، فجرفه تيارهم ليكتشف بعد حين أنه يتوسط من لا ينتمي إليهم، حاول الابتعاد عن الجموع الغفيرة لكنها من القوة بحيث ابتلعته في جوفها، فبدا لا حول له ولا قوة أمام شدة التيار الهادر.

ولما هدأ اندفاع الجماهير قليلاً وجد نفسه وجهًا لوجه مع نصب الحرية وهو يتحسس حقيبته المليئة بالأوراق المهمة والمتعلقة بالمحكمة... وفيما هو يتطلع بوجوه المتظاهرين مستغربًا وجد هناك وعلى مقربة منه الكاتب المتحرر زوج زبونته محاطًا بثلاثة نساء جميلات وهو يهتف عاليًا مطالبًا بحقوق المرأة وحقوق الشعب المهدورة... هنا قدحت برأس سوادي فكرة ولا في الخيال وجدها فرصة لتغيير المسار والخروج بتظاهرة خاصة بوجه ظلم الكاتب

لزوجته ومطالبته بمنحها حقوقها المشروعة فعمد إلى إخراج ورقة من حقيبته وكتب عليها بخط واضح وأنيق: «دعها.. فلم تعد من مقتنياتك الشخصية»، وبينما هو يتقدم باتجاه الكاتب حاملاً الورقة حانت منه التفاتة عثر بها على جميل المحامي صاحب الترتيب الثاني بسجل المحامين الذين فشلوا في الترافع عن زوجة الكاتب وهو يحمل قطعة ورق مقوى كتب عليها بخط واضح «دعها.. فهي ليست لك.. هناك من يستحقها».. تلاقت نظراتهما بشيء من الاستغراب... اقتربا من بعضهما تطلع كل منهما في ورقة الثاني تبادلا ابتسامة مشفرّة واتجها ناحية الكاتب بمسير حثيث مخترقين الجموع الغفيرة، وصلا متجاورين وهما يعرضان شعاراتهما أمامه.

لحظات مرت كيوم القيامة وهي تعزف طبولها، سوادي وجميل يقفان بتحدٍ كبير أمام الكاتب الذي حاول توجيه الجماهير بالضد منهم، لكنهما صدحا بحنجرتيهما بهتافات تنطق بما حَوَتْ أوراقهما مما أخرس الكاتب الذي بدا مندهشًا لما يرى ويسمع... ترتفع حدة الهتافات تتمدد كالنار في الهشيم لتطال حناجر بقية المتظاهرين في هتاف موحد من غير أن يفهم أحدهم حقيقة ومغزى هذه الشعارات: «دعها فلم تعد من مقتنياتك الشخصية» .. «دعها.. فهي ليست لك.. هناك من يستحقها».

وجد الكاتب نفسه وحيدًا وهو يمتص إبهامه كطفل مكتفيًا بالنظر لما يدور حوله... حاول أن يتكلم معترضًا على ما يجري، فغاب صوته في فضاء المتظاهرين، غاب حتى تلاشى، عندها حزم أمره منسحبًا في رذاذ لعابهم وهم يصرخون: «نريد... نريد...» تأتي الكاتب قوة استدانها من المجهول على سبيل الدعم... يصرخ بالجموع الدائرة كخورة نهر: «إنهم يكذبون، لا تصدقونهم، إنهم انتهازيون، خونة، يريدون تحريف التظاهرات،

لا تصدقونهـم ، إنهـم يكذبون»... يُصاب المتظاهرين بهسـتيريا تدفعهـم بعنف لأن يطـأوا الكاتب بأقدامهـم صارخين: «نريد... نريد...» فيرد عليهم وهو يعد تكسرات أضلاعه «إنهم يكذبون.. لا.. تصد.. قون.. هم».

حكاية من نسج الألم

كعادته في كل صباح، وبعد تقاعده من وظيفته في الجمارك، أطلّ «فارس كبيان» برأسه المدوّر من شرفة غرفته، وراح يجلد المارة بنظراته، باحثًا فيهم عن فتاة رآها صدفة قبل سنين، كان لها ضفيرتين متعانقتين انحدرتا بتلوٍ مستفز كحية تحتضن الأخرى تركتهما بانسياب مع قفاها المصقول كإبريق فضة حتى أسفل عجيزتها المستديرة كبالون نفخه صبي مشاكس فراح يتحرش بالأشواك مختارًا ما دق منها رغبة في الانفجار... تعلقت نظرات فارس بالفراغ الذي غادرته تلك الجميلة فذهبت خارج مرمى كادر رؤياه ليصبح بعد ذلك ملاذه الوحيد في كسر رتابة الحياة التي ولت ظهرها له منذ طفولته الباهتة... لام نفسه كثيرًا لعدم اللحاق بها والتعرف عليها، فراح يقضم أظافره قلقًا، حتى أتى على آخرها... أيام مرت دون أن تلامس صورتها عيناه مرة ثانية، ودون أن تداعب أنفاسه الهواء الماكث طربًا فوق خدودها، أيام مرت وهو يذرع إسفلت الشارع جيئة وذهابا، يحييه بابتسامة تترجمها حواسه إلى رغبة في نزيف مشاعر متبادل... ندِمَ فارس كثيرًا لأنه لم يأخذ وطره منها أثناء النظرة الأولى والوحيدة ويشبعها لسعًا يقرأ من خلاله تفاصيل جسدها الناشئ المبهم، طاعنًا بئرها المترعة بنخله المنتصب كجبل لا يعرف الارتخاء.

وفيما هو غارق بخيالاته السريالية اعترض نظراته الواهنة في الكتل البشرية المتقابلة في سيرها المجنون مرور كلب جميل أحاط برقبته طوق جلدي طويل وكأنه فر من يد امرأة أرستقراطية قادمة من العاصمة لرغبته في التحرر وفقًا لرغبات

العديـد من أنصار الدولة المدنية... بدهشـة كبيـرة، تابع قدوم سـيارة «بي أم دبليو» مكشوفة السـقف، تسابق الريح، يستقلها مجموعة من الصبية العابثين... استدار الكلب ناحيتهم، شاهدهم بطرف عينيه، لم يعبأ بهم، بل واصل سيره المتغنج... لكنّ سيارة العابثيـن انقضـت عليه بعنف لتدهسـه تاركة إياه مرميًا وسـط الشارع جثة هامدة إلا من أنين خافت أصمَّ أذنيّ فارس المتسمر في الشرفة... حيث شعر بهذا الأنين كصراخ امرأة في ساعة طلق... واصلت السيارة هوايتها في الجري المتعرج مع ضحكات وصراخ الصبية الذين اعترتهم مشاعر النصر بحركاتهم الإكروباتيكية داخل السيارة.

تحركت في داخله رغبة أنْسَتْه الفتاة ذات الضفائر الطويلة بأن ينهض لإسعاف الكلب لكنه لم يغادر مكانه معللاً ذلك بأن المارة هم من سيتكفل بذلك... دقائق مرت دون أن ينتبه أحد من الناس لمرأى الكلب الغافي على الإسـفلت، كل يسـير لوجهته لا يلوي على شـيء وكأنهم اعتادوا مرأى هذا المشـهد المثير... مرت سيارة أخرى تحمل تابوتًا لشهيد في معركة لا يعرف جنودها كيف تواجدوا وسـط آتونها الملتهـب إلا من وعود بجنة عرضها السماوات والأرض وحور عين ذواتا أثداء متورمة منتفضة كالرمان اللبناني... كان يسير خلف الشهيد في طابور منتظم مجموعة من النسـوة لاطمات الخدود، ناشرات الشـعور، لا يربطهن أي نسب بالشـهيد، يبدو أن الشـهيد أحـد زبائنهن فـي دور الدعارة حيث كان يمنحهن أكثر مما تستحق أجملهن... واصلت الجنازة سيرها وخلفها النسوة والجميع يطأ الكلب الممزق الأشلاء ساحقين بقايا أحشـاءه غير عابئين به وهو يجاهر بألمه عاليًا محذرًا إياهم: «لا تقربوا المساكين وأنتم تتعلون سرف الدبابات في مسيرة الوهم الذي عطل حواسكم وقتل إنسانيتكم».

تكرر مشهد سحق جثة الكلب من قبل المارة كثيرًا أمام مرأى بطلنا وهو يقبع متخفيًا في الشرفة متلصصًا الحياة من خلال موت الآخرين، وكأنه شريط سينمائي يعيد نفسه على جمهور ميت هو الآخر، كما مات العامل الذي يُدَوّر هذا الشريط بالسكتة الدماغية فلم تعد هناك نهاية لهذه القيامة... وفي أيام معينة تشتد وتيرة السحق على بقايا الكلب فتزدحم الشوارع بالمارة من كل الأجناس والأنواع، لتجد أحدهم لصق الآخر حاملين عُددًا وأدوات تزيد ثقلهم على الأرض بمحاولة مبيتة للإمعان بسحق الكلب وألمه، لتتلاشى جثة الكلب رويدًا رويدا، حتى اختفى أثره وما عاد بطلنا يرى شيئًا للكلب إلا صورة باهتة ممتقعة الألوان تضاجع طيف أنثاه التي شاهدها صدفة عند أول جلوس له في هذه الشرفة.

نظر مليًا إلى ساعة الجدار وجدها تشير للخامسة فجرًا، طرق سمعه تجويد أحدهم وهو يقرأ القرآن: «ويبقى وجه ربك ذي الجلال والاكرام».

- مصيرُنا التلاشي.

قال جملته تلك وأعطى الإيعاز بالجريان لدموعه التي أغرقت الشرفة وتسربت حتى الشارع الذي اختفت عنده جميع الصور الماكثة في ذاكرته المشوشة إلا من صورة طوفان متلاطم يملأ شاشة الدنيا... هز رأسه آسفًا وهو ينظر لساقيه الهامدتين... حرك إطارات كرسيه الإلكتروني بيدين واهنتين باتجاه السقف وراح يختزل نفسه شيئًا فشيئًا حتى استحال بهيئة صرصار يستعرض مجسّاته جالدًا الهواء ثم تسرب داخل مجموعة التوصيلات الكهربائية للمروحة ليختفي بعدها فتختفي معه كل الحكاية.

فرانكشتاين في شارع النهر

اعتـدت المـرور مـن أمامهـا كل يوم فـي شـارع النهر إبان الثمانينات من القرن الماضي وهي تقف متصدرة أحد محلات بيع الملابس بطولها الخيزراني، وجسدها الممشوق كأفعى، وهي توزع ابتساماتها الساحرة على المارة راجلة، وسيارات.

اقتـرب منهـا محاولاً الهمـس في أذنها... يسـتفزني صاحب المحل بنظرات مشككة زلزلت الأرض تحت أقدامي... أكتفي منها بجلد جسدها الغض وثدييها المتورمتين بعينين شبقتين تقلع الإسفلت من الشارع.

أواصل مسيري المرتبك، مع التفاتات عدّة ناحيتها عند ناصية الشارع حتى تنتهي بي قدماي للارتطام بأسطوانة الكونكريت الحاملة لشناشيل الشارع.

أسـخر من نفسـي ماسـحًا رأسـي بيد خجلة غائبًا في السوق العربي بين المتبضعين كلعاب طفل ذاب سريعًا في نهر مترامي الأطراف.

أصبح مسيري في شارع النهر كنوع من الإدمان في رغبة ملحة للاسـتمتاع برؤية هذه الفتاة التـي لا تقبل مغادرة ذاكرتي، هذه الرغبة الملحة تتلخص في محاولة مسـتميتة مني للمس جسـدها بيد مرتعشـة، أتحسـس مناطق الأنوثة المتفجرة فيهـا أنهارًا من خمر، وضحكات ماجنة، وفضاء ملبد بدخان السجائر، وأثداء متطايرة، وسيقان تتكاثف كغابة كثة الأشجار كتبت سيناريو العشق الإلهي.

سـنوات مـرت دون أن أحظى بشـرف الاقتـراب منها لخوف أرهقنـي حـال دون تحقيق ما تصبـو إليه حواسـي المختلجة نارًا وقودهـا شـهوات مراهق لم يتشـرف برؤية الأهرامـات، أو تذوق عسل مياهها العذبة.

انتهت أيامي في بغداد وحان موعد رحيلي فتوسـعت الشـقة بيني وبينها فاغتربت بعيدًا عند آخر نقطة من جراحي أبحث عن خيمة تظلني من ألآه حتى شاء الأمريكان كرمًا أن أعود فاتحًا لشـارع الرشـيد في ظروف أولها نقير سـعادة، وآخرها نهر حزن يلقف خيوط الفرح برمتها.

اسـتمتعت كثيرًا وأنا أرى كرسـيّ القائد معروضًا للبيع، ونياشين الانتصارات الوهمية معلقة قرب صورٍ لنساء عاريات يهتف مدللاً لها شـبابٌ يرتدون سـراويل سـورية بوجـوه كالحة أدمنت السجون.

- ما لم تحصل عليه من نياشـين في سالف أيامك نبيعه عليك الآن... الواحد بدولار... استعجل الفرصة لن تتكرر... لتكون قائد فيلق، أو وزير دفاع، أو رئيسًا لجمهورية الخوف عليك بالاقتراب من هذه البضاعة.

أطأطـأ رأسـي مواصلاً مسـيري متعثرًا بخطوات عاشـق لا يجيد التعامل مع أكوام اللحم الأبيض المتوسط... عالم جديد لم تره عيوننا إلا في الأحلام... البيع بالمفرد والجملة لكل ما كان عصيًـا عن متناول عقولنا من مخلفات الماضي المؤطر بأسـلاك شائكة من الخوف والرعب والسكس الممنوع.

أصادف في طريق انكساراتي رجلاً كبيرًا يحمل مانيكان امـرأة عارية... أمسـكتُ بكتفيه، وسـألته ولعـاب فمي يتقافز ككرة مطاطية.

- بـاللّه عليـك، هل رأيت حبيبتـي؟ إنها تشـبه حبيبتك هذه... لكنّها ليست بهذا العري الفاضح... دعني أرى ما عندك؟ أو أقول لـك: دعني أسـألها مـدى معرفتها بحبيبتي... كانـت ترتدي ثوبًا جميلاً يظهر نزيفها الدائم ما بين نهدين من حليب.

دفعنـي الرجل بعنف بطرف كوعه فأسـقطني أرضًا ثم هز يده وبصق على وجه مذلتي.

- سكير حقير.

انحـدر بصـاق الرجـل عند خارطـة رقبتي... نازلاً بانسـياب حتـى نهايـة العمـود الفقري... توقـف فجأة عند عظـم العصعص رافضًـا مواصلـة نزوله حياءً... سـرت بـرودة عند تلـك المنطقة، نشّفها سماعي صوت إطلاقات عدة أربكت حركة المارة وبثت الرعب في الناس الراجلة، إلا الباعة وكأنهم ألفوا هذا المشهد.

- أيـن حبيبتي؟ احـذروا... خلّوا بالكم منهـا... حافظوا عليها فهـي تاريخي... هي الماضي بكل جمالـه... بربكم هل ما زالت تنتصـب كتمثال الحرية الأمريكي وسـط شـارع النهر... هل ما زالت صامتة سـاكنة لا يُعرف لها حركة سـوى جسـد ممشـوق وابتسامة لا تغادرها.

كان يثيرنـي خصرها وأناقة عجيزتها السـاحرة... لا أراها واضحـة المعالم كمـا كانت... حتى إنّ زميلاتهـا في المحلات المنتشرة لبيع الملابس لا أرى لهنّ ظلاً يزحف عند عتبات قلبي... ما الذي يجري؟

أحث المسـير باتجاه حبيبتي، أراهـا من بعيد... الوجه وجه حبيبتي... لكنها أوصدت فمها فلم تعد مبتسمة... ما ذلك الشيء الذي تلف رأسها به؟ حجاب الأميرة!!! من أين أتت به؟ ومن الذي ألبسها هذا الهراء؟ وما هذا اللون الأسود الذي ترتديه... هي... نعم

هي، لكنّها بدت فاترة، توحي بموت صاخب.

اختلط المشهد بحركة غير طبيعية لمجموعة ملثّمة ترفع أسلحة خفيفة ينقضّون على حبيبتي بوحشية البرابرة برصاصات من صنع الشيطان، ثم ينهال أحدهم بأخمص رشاشته على رأس حبيبتي فيحطمها أشلاءً متكسرة لا جامع بينها. لكنها مازالت تواصل ابتسامها... وتلبية لصافرة مجهولة يختفي الجميع بلمحة عين لم أستطع الاستدلال على وجهتهم... أهرول باتجاه حبيبتي أجدها وقد استقرت قطعها المتكسرة على إسفلت الشارع في نفس مكان اغتيال راقصة متقاعدة.

وقفتُ فوق رأسها أندب حظي العاثر مولولاً لاطمًا على رأسي ليكون اللطم عادتي، متآخ مع الثكالى... ألملم القطع المتناثرة من جسدها وسط ذهول المارّة.

- حتى المانيكانات لم تسلم منهم.

تجمعت الناس بشكل نمل استدل على قطعة خبز وهم يصفقون راحًا براح آسفين على جنوني الذي جعلهم يبكون بحرقة... أحد المارّة لفت انتباهه هذا التجمع الخيموي فوق رجل يجمع قطعًا بلاستيكية لـ «بدامة» كما يسميها العراقيون شعبيًا... فرق هذا المستطرق جموع الناس بيديه وهو يقول: «شكو؟... شصاير...؟» ولمَا أبصر الحقيقة انطلقت ضحكاته الساخرة التي شجعت الجميع ليشاركوه الضحك الذي أخذ فعل الشرارة في أفواه الجميع حتى بلغت ضحكاتهم أقاصي روحه فهشمت كل جميل... بعدها نزل الرجل عند كتفيَ فهزهما بعنف، ورمى في أحضاني زجاجة لاصق إيراني أخرجه من كيس أسود كان يحمله بيده.

- يا أخ... أوصتني زوجتي بشراء لاصق إيراني لسطل ماء مكسور من البلاستيك... خذه هذا اللاصق فلا نفع فيه بالنسبة

لي... سأشتري سطلاً جديدًا... أمّا أنت فسينفعك كثيرًا... حاول أن تلصق قطع دميتك المتكسرة بحرفنة العاشقين، واجعل منها فرانكشتاين ينفعك ذات ليل.

تصفعني ضحكاتهم فأتَقيها بقطع جسد حبيبتي التي استجابت لي وأنا أصلها ببعضها... حتى اكتملت جسدًا سويًا أرعب الجميع ففر الرجل تاركًا كيسه الأسود وهو يتعثر بأقدام رفاقه من الناس الهاربة.

أضع يدي بيد فرانكشتاين المرأة، نتبادل القبل، ونحن نسير باتجاه الشمس... تدني فمها من لحمة أذني وهي تقول: «كنت أنتظرك أن تجمعني منذ زمان، فأنا شتات الأيام».

الثلاجة

اعتاد صاحب اليد الطولى التي كان ينعتها الناس بيد الخير أن يطـلّ بقامته المهولة كل مسـاء عند أعتاب السـاعة الثامنة، ملوحًا للجماهير من خلال شاشة التلفزيون، مهيمنًا على مساحتها الفضية المسـتطيلة، آسـرًا جموع المشاهدين وهو يفضُّ بكارة ثلاجات العراقيين بيد تتضح خوفًا ليرى ما يخفون فيها!! لاعتقاد أمني بأنّ الثلاجات مكان آمن لوسـائل الثورات، وكذلك ليرى ما يملكون من طعام بفضول المتحكم فيكافئهم بمسـاعدات مختلفـة حتى لو وجـد عندهم ما لذ وطاب مـن أصناف الأكل، المهم الاطمئنان بأنْ لا شيء يهدد مملكته، فقط يفتح ويكافئ.

وأنـا أتابع تنقلاته بين البيوت شـاكس خيالي حلم شـفيف أطربنـي كثيـرًا فجعلني أتعلـق بمنطاد فرح يشـطب ذكرياتي المريـرة ويدفعنـي لإلغاء أيام الفقـر والعوز وحاجـة الناس الذين تجردوا من إنسـانيتهم في ظل زمن تخلى الأخ عن أخيه، والأولاد عن آبائهم، والكل عن الفرد!!.

تمثّـل هـذا الحلـم المنتظـر بزيارة يـد الخير لبيتنـا بإعجاز إلهـي فـي جولة من جولاته المتعـددة والبالغة عـدد بصاق زفيرنا في وجه شـهيقنا. حلمت به وهو يغدق علينا عطاياه بمعية حمايته وهـم يمسـكون ورقةً وقلمـا مسـجلين احتياجاتنا التـي لا تعدو أوكسجينًا نقيًا يمنع وصول التلوث الروحي درجاته القاتلة.

تعثر قطار حلمي بمطبات من صنع خيالي، فراحت أطراف أصابعي دون وعي مني بالضغط على مكابح قحفة رأسي للتوقف قليلاً، عندها انقطع شـريط الحلم السـينمائي فخلّف غبارًا يعلو

مشـهدًا حاولت إنجازه بكادر متواضـع وكاميرا رخيصة... وما منعني من مواصلة الحلم والتريث في السـير قدمًا في بيئته، أني تذكرت أنْ لا ثلاجة في بيتنا، نعم لا نملك ثلاجة والشرط الوحيد لتحقق الحلم هو تواجد الثلاجة في خربتنا المتهالكة التي أصبحت أثرا بعد عين عقب زيارة صاروخ مدمر غير مرحب به لدارنا أرسلته القـوات الإيرانية لزيارتنا وتقديم خدماتـه لتأكيد فقدان الجزء الأكبر من إنسـانيتنا .. ما السـبيل إذن لبلوغ ذلك وتحقيق الحلم المنتظر: لا أعلم، سقط في يدي، لكن ابتسامة صاحب يد الخير الممتقعة بأسنانه الكاملة والتي حافظت على تناسقها شجعتني هنا ليتفتق ذهني عن فكرة شـيطانية قريبة للخيال ليغدو حلمي حلمًـا داخل حلم بتضاجـع باتافييزيقي، مفاد الفكرة يحتم عليَّ سرقة ثلاجة جاري الضابط في الشرطة الجنائية في لحظة غيابه وغياب زوجته المعلمة عن دارهم الفارهة الملاصقة لدارنا الخابية في جوف القهر.

أتذكر مشاركتي لهذا الضابط قبل سنة من الآن في قطع دابر نخلة غير مثمرة في حديقتهم من أصل جذورها بأجرة باهظة. أراد التخلص منها لزرع ورد الشبوي والرازقي حسب طلب زوجته التـي تكبره بأربعة أعوام. يومها شـاهدت الثلاجة البيضاء وهي تلمـع كنجم في سـماء مظلمة لذا اختمـرت صورتها في كياني برغبة امتلاك ومصافحة أختها كقطعة أثاث مهمة لتزين مطبخنا. صورة الثلاجة تناسلت مع فكرتي الشيطانية المخاتلة مع صاحب يـد الخيـر، وبهمّة الحالمين وعند صباح مشـرق توسـطت ثلاجة جـاري مطبخنا الصغير وهي تلوح للريّس أن أقبل إلينا ولو بالعمر مرة.

وفجأة وبلا مقدمات ودون سـابق إنذار وبعد سـخرية حلمي من أدواتي المتواضعة لتحقيقه شـاهدت يد الخير تهبط للأسفل

جزعة ممتنعة عن التلويح. وبإشـارات مختلفة من خطوط الحماية الثلاثة تسرب الجميع خارجًا من باب بيتنا بارتباك يعجُّ بالصراخ: أتركوا المكان فالبيت لا ثلاجة فيه حتى رددت الشـوارع وهي تمتـد باتجاه الهور أن «لا ثلاجـة لديهم» مما دعا طيور الخضيري أنْ تصرخ مولولة «المكان لا ثلاجة فيه... أتركوا المكان» .. لذا سـجلت الدوائر الرسمية حينها هجرة الطيور قبل موعد طيرانها إلى بلد مجهول الهوية والعنوان.

أواجـه صرخاتهم بصرخـات أكبر وأعنف... هذه ثلاجتي... إنّهـا تطابق المواصفـات التي ترجونهـا... لا تذهبـوا أرجوكم... حققوا حلمي... فدوه أروحلكم... عليكم العباس... لا تخذلوني... يد الخير، سـيدي، حبيبي، ألسـت ابن علي ابن أبي طالب كما تقـول وهو أبو الكرم، أرجوك افتح ثلاجتي... عفيه أبو المروة... لا جواب سوى قعقعة البساطيل وهي تنسحب هاربة في الرذاذ.

انتهت حرب إيران ذات الثمانية جروح ولم يأتي الريّس صاحب يد الخير بصحبة بدلته الزيتوني... أقبلت حرب الكويت ولم يقبل الريـس علينا من صحراء العطش، والثلاجة ماكثة في مكانها لـم تفتـح أبوابها كما فتحها سمسـم لأطفاله، ما زالت تتوسـط المطبخ بكل عناد.

أقبلت لحظة سـقوط بغداد، والتي لا أعلم ما الاسم الملائم لها، والثلاجة ما زالت ترقص منفردة في بيت بلا سقف وجدران بلا ظل... سقط الريّس، وسقطت نياشينه، وسُرقت جميع الثلاجات التـي يملكها بكامل عدتها من الأطعمة ولـم يأتي... وفي غمرة التشتت والضياع وإنفاق الزمن هباءَ لتحقيق الحلم ربت على كتفي أحد المشـاركين في لَطْمية عزائيـة، ألتفتُ إليه فزعًا، رد عليّ قائلاً:

- لا تكن قلقًا ، سيأتي أبو عمامة ويعوضك عن عطايا الريس الشيء الكثير.

- أمتيقن مما تقول؟

- التجربة تتحدث عن نفسها... إنها في تناسل يا أخي.

أكلتُ نصف روحي أنتظر الريس، وها أنا في طور حرق النصف الثاني في انتظار أبي عمامة علّه يأتي فيفتح الثلاجة ويكافئني ويرفع معنوياتي، أو على الأقل تكون سرقتي للثلاجة ذات جدوى.

وفيما أنا جالسٌ كعادتي ليلاً ألتهم السجائر الواطئة الكلفة متشرنقًا بضباب الدخان الذي احتقنت رئتي لوقعه المرير... ومن خلل هذا الدخان شاهدت أبا عمامة بلحيته الشعثاء يتسلل خفية إلى بيتنا قافزًا برشاقة الفتيان سور البيت الواطئ وهو يحمل كيسًا كبيرًا ، ليفتح باب المطبخ متلصصًا ذات اليمين وذات الشمال... قلت في قرارة نفسي: ها قد أتى الفرج بعد سنين عضال من الانتظار الناشب مخالبه عميقًا في فيافي الروح.

انتصب أبو عمامة متوسطًا المطبخ وهو يقلب عيونه التي تسميها العجائز (زروف مس) لصغرها ، بعد عدة دورات سريعة توقفت تلك العينين على شيء أبيض، نعم- نعم، الثلاجة لا غيرها ، تكلمت مع ظلّي الجبان بشيء من الهمس: برأيك ما الذي سيفعله أبو عمامة هل سينفض ما في كيسه من مساعدات كأبي نويل ترمم ما تبقى من أيامنا العجاف، أم يتركنا نحن من ينفض ما بداخل الكيس... قطعَ عليّ حواري مع ظلي مشهد أبي عمامة وهو يُخرج سبحة طويلة من كيسه المتهرئ... أحصيت حباتها فوجدتها مائة حبة وحبة ، وبقدسية الأنبياء وجدتها ترتسم منعكسة على شعرات لحيته المدببة ، فراح يردد اللّه أكبر بعدد أربع وثلاثين

حبـة ثـم تلاها بثـلاث وثلاثين حبة أخـرى بالحمد للّه ثـم ختمها بسـبحان اللّه بثـلاث وثلاثين حبة أيضًا ، ليكتمـل النصاب مائة حبة وتبقى حبة واحدة تتطلع بعينيها خجلة.

فكرت قليلاً بهذا الترتيب للذكر ، علمًا هو لم يذكر لا إله إلا اللّه ، هنا قدحت في ذهني صورة ما قرأته لدى صديقي الهارب مـن الجيش فـي كتاب مفاتيـح الجنان وهو يـداري قلقه وخوفه بقراءة الأدعية في هذا الكتاب حتى اعتقله الرفاق بعد أن وشت به أمه لعالته المريرة عليها... أكل ونوم وأدعية دون عمل يُذكر ، نعم تذكرت هذه الطريقة في الذكر هي ما يُسمى بتسبيح الزهراء ، حسدت أبا عمامة على تقواه فاستبشرت خيرًا بذلك.

المذهل في الأمر والذي جعلني أتضاءل متلاشيًا أن أبا عمامة قطـع عليّ فرحتـي فاحتضن الثلاجة بما فيها من طعام متواضع ، وحملها على ظهره وخرج من باب الدار مسـرعًا ، تاركًا كيسـه فارغة تفترش أرض المطبخ ، هنا تفجرت لعناتي كبركان أحدثوا فيه فتحة حديثة بعد طول انحباس ، فلعنت يد الخير وشروطه في المنح والعطاء ، ولعنت أبا عمامة وإنسانيته الزائفة ، ثم انتهيت بلعن الزمن الذي فات ، والزمن الذي سأنفقه في انتظار من يأتي ويفتح ثلاجتي التي سأسرقها من جار آخر يعمل في دائرة أمنية ، ثلاجة آل لونها الأبيض إلى الأسود الصدأ لأنها شاخت كثيرا فشاخت معها أرواحنا العليلة.

أم زلوف

حلّق عماد المطيرجي بعيدًا بعينيه الصغيرتين صوب طيوره، وهي تتهادى متمايلة بغنج سحرّي في زرقة سماء صافية، سَبَح معها بقلب أبيض، وأجنحة من ابتسامات... لوّح لها بقصبته التي لَفَّ عليها أحد قمصانه المتهرئة، كانت قد أورثتها له مخلفات زمن مثقل بالهموم والأحزان.

واصل تلويحه الهستيري لها بروح العاشق مع صفيرٍ حاد يخرج من خبايا الروح، وكلمته الصادحة المعتادة «كش عاع» تحتل فضاء الأسماع مؤديًا لها بانسيابية غريبة، حاذفًا حرف العين، كما يؤديها ذاك الرجل الشمالي بائع العسل في شارع الرشيد وهو ينادي (عسه) حاذفًا حرف اللام لإضفاء جمالية غريبة هو مقتنع بها.

أنهكه اللهاث، والصياح بملءِ فمه، وكلّت عيونه لمتابعته خفقان أجنحة الطيور وهي تراقص السحب، مختلطة ألوانها المتباينة بزرقة السماء، في لوحة تشكيلية ولا في الأحلام.

رغم هذا التعب والنصب، إلا أن عماد يصرّ على استمرار لعبته التي أدمنها وباتت من حيثيات حياته البائسة، لعبة لا يميزها سوى عشقه لطيوره التي لا تشبه بقية طيور اللّه، هذا حسْب قناعته التي يَعْتَدُّ بها.

استَحدث لهذه المخلوقات الطائرة مسمّيات ما أنزل اللّه بها من سلطان... أشعل بأحمر، أرفلي، كومرلي، شكرلي، حتى أصبح لديه قاموسًا بكل أسماءها المحلية والعربية والعالمية... ولم يكتف بذلك بل اخترع لها أسماءً إناث من أقاربه وجيرانه... حتى

الذكور منها ألحق بها أسماءً أنثوية كـ وداد، سعاد، إيمان، هدى.

ونتيجة لهذا الشغف الجميل والتعلق الغريب خَلُصَتْ أبجديات تفكيره إلى نتائج علمية حياتية بيئية لكل ما يتعلق بهذه الطيور التي وجد فيها ملاذًا وخلاصًا من واقع مرير لسلبيات مجتمع فقد إنسانيته على أعتاب الأنا وحب الذات.

احترف عماد هواية تربية الطيور بعد إعلانه اليأس من البشر وجدوى علاقاتهم اللاإنسانية، فاستنجد بالطيور لتطيب بعض جراحاته التي لازمها التقيّح والنزف اللاشعوري منذ أن فقد أمه وأباه في حادث انتحاريّ نفّذه الأب بإتقان، لضيق ذات اليد في زمن الحصار الاقتصادي بعد أن سقط في يده وعجز عن إيجاد حل لحياته، حيث عمد إلى آخر شيء يملكه في البيت، فباعه بثمن جيد، واستثمر مبلغه بشراء مواد غذائية تصل بهم آخر الشهر وهم أحياء... لكنّه لم يشتر موادًا غذائية بل اشترى سمكة «كطّان» كبيرة وهي الأكْلة الطيبة والمفضّلة له في شبابه وعمد إلى دس السمّ فيها، فتسرب بسهولة ويسر في ثنايا لحمها، وقدمها مشوية للعائلة مع أنواع الطرشي، والسلطات، والخبز التفتوني المميّز المغطى بالسمسم. وكأنّ لسان حالهم يقول: أين أنت يا دافنشي لترى العشاء الأخير على حقيقته، لا كما صَوّرَتْه لوحتك المترفة.

شربوا الشاي المعتق بعدها بصحبة ضحكات مجلجلة، ثمّ غاب الجميع في سِنَة من نوم اختتمت بالعثور عليهم جثثًا هامدة، وسائل أزرق ينحدر من جوانب أفواههم الداكنة... وفي المستشفى وتحت معاينة الطبيب توفيّ الوالدان وأُنقذ عماد في اللحظات الأخيرة.

لذلك واجه عماد كُرْه المجتمع لوالديه بمحبة كبيرة للطيور في محاولة للرد عليه ببلاغة، فهو ما زال يتذكر تفاصيل هذا العداء الذي عجز عن معرفة أسبابه المنطقية. لكنّه قرأ كل شيء

في عيني أمه وأبيه... هذا العداء الذي أثقل كاهل العائلة وأرداها مهملة، مهمشة في ظل زمن قاهر اسمه الحصار الاقتصادي...

منشأ هذا العداء اتضح منذ لحظة خروج أبي عماد أيام شبابه في صبيحة إحدى الجُمَع من أيام الله لإطفاء نائرة شهوته لدى نون النسوة في قرية الغجر المسماة «أم زلوف» التي يفد إليها القاصي والداني من مدن العراق وبمختلف الأعمار والوظائف، خصوصًا في أيام الجمع والعُطَل الرسمية ومن كلا الجنسين. يتوزعون ما بين طالب شهوة وما بين فتاة مضطرة لعرض جسدها.

ربما فتاة هربت من أهلها بصحبة حبيبها تحت مسمى «نهيبة» ولما أصبحت رهن رغباته أدار لها ظهره لتجد في أم زلوف ملاذًا آمنًا لها... أو ربما مطلّقة، أو أرملة تعاني شظف العيش، تخلّى عنها المجتمع بعد أن أشبعها طعنًا تحت الحزام فوجدت في أم زلوف مصدرا لترميم وضعها المادي... أو طالبة جامعية في كلية مرموقة أقبلت من المحافظات وانقطع دعم أهلها الماديّ لها فلجأت لأم زلوف لكسب مبلغ يعينها على إكمال دراستها... لكن الأعم الأغلب منهنّ تماهت في ثنايا المجتمع الغجري مع الأصيلات المؤسسات لأم زلوف وأصبحت عنصرًا فاعلاً في إنعاش اقتصاد المدينة.

كان ديدن والد عماد أنّه يجمع كل أسبوع مبلغًا جيدًا من أجرة عمله كعامل بناء وينفقه بالتنقل بين بيوت «الوناسة» في أم زلوف... هكذا كان فهمه للحياة، عبارة عن بناء بيوت ومضاجعة غجريات.

وفي أول زقاق من مدينة أم زلوف وعند عتبة أول دار مر من أمامه أبو عماد، تسمّرت عيناه على فتاة كان يصفها بقوله «شطب ريحان» فتاة بعمر الزهور وكأنها البدر في ليلة تمامه، أغرم بها من ساعته... ولشدة حبه العذري لها لم يقترب منها جنسيًا كالعادة كما كان يفعل مع غيرها بل توجه لها مبتسمًا وهو

يقول «أريد الزواج منك».

تكلّم مع أهلها، فسخروا منه، وعنّفوه، وطردوه. لكنّه استطاع وبغفلة من الجميع أن يدس ورقة بيدها مكتوب عليها اسمه وعنوانه.

بعد يومين من عودته من أم زلوف سمع عماد في ساعة متأخرة من الليل طرقات عنيفة على باب دارهم المتواضعة رجّت أسماعه فهرع إليه، وفتحه حذرًا، وهو يقول «على كيفك منو إنتَ؟» ولمّا فتح الباب وجد شمسًا في غير موعد إشراقها متسمرة عند عتبته. إنها فتاته الغجرية، حاملة تحت عباءتها صرّة ملابسها يغلفها صمت رهيب من شيلة رأسها حتى أصابع قدميها المُلَوَحَتان بالطين... صمت ملائكي يخبر بثرثرة قلبها «نارك ولا جنّة هلي».

أتته مُخالِفَة تقاليد مجتمعها... ضاربة عرض الحائط تهديداتهم بقتلها لو فكّرت أدنى تفكير بالاقتراب من ابن المدينة الذي عُرف عنه أنّه لا يقر مع غجرية أكثر من أسبوع وبعدها الطلاق، أو الرمي على قارعة الطريق ككلب سائب.

منذ إشراق شمس الغجرية أم عماد على أرض أبي عماد أعلنت الأيام حربها الشرسة ضدهم بصحبة مجتمع مدني وآخر غجري أمعنا في إذلالهم عقابًا لهما على هتك تقاليد بالية للعشيرة لا تُسمن ولا تغني من جوع.

وعلى إثر تلك الحرب، عاش الحبيبان فصول الحرمان بكل صوره، فواجهوا الازدراء أيّنما حلوا... أكلوا حصرم العلاقات الأسرية فجلدهم نفاق المجتمع لينتهي الأمر بهم على هامش الحياة مجرد أشباه بشر.

لذلك وبعد ولادة عماد بثلاث سنين أيقن الزوجان أن لا حياة بصحبة تماسيح من نسل آدم وحواء. فخطرت لهما فكرة الانتحار

بسمكة «الكطّان» ولولا عناية الطبيعة لكانت مقبرة الغري تُقَبّل وتحتضن الأجساد الثلاثة إلا إنّها اكتفت بالأب والأم وتركت عماد يتسرب من بين ذراتها فذهبت محاولات عزرائيل أدراج الرياح في قهر بطلنا العجيب، ليخرج عماد من براثن عزرائيل بأعجوبة أذهلت الأطباء لمدى قوة وتحمل جسم هذا الطفل للسُم الذي بإمكانه أن يقهر فيل ضخم... ومن هنا ورِث عماد مأساة أمّه وأبيه ليتذوق أقسى أنواع المرارات والتي لو طالت الأرض لتشققت والجبال لتفتقت، والسماء لتصدعت.

وباجترار الأيام والسنين بعناصرها ومسمياتها ومحطاتها المختلفة وجد عماد نفسه أخيرًا وهو بعمر الخامسة والثلاثين وما زال يعيش الوحدة بلا أنيس أو ونيس، سوى ابن عمه إياد الذي يتردد عليه بين الحين والآخر مكتفيًا ببعض النصائح التي لا تجد قبولاً لديه في أن يترك هذه الهواية التي لا طائل منها سوى التعب والإجهاد والمشاكل... وبالتأكيد هذا الرأي لا يستسيغه عماد، ولولا حبه لإياد، وعمق صداقتهما، وقيمة قرابتهما، ولإيمانه بصدق مشاعره لتلقى منه صفعات وركلات تطيح به بعيدًا.

وفيما هو غارق حتى هامته مع رفيف أجنحة طيوره وميلانها السابح المتموج، طرقت سمعه كلمة أرعبته.

-عماد، عماد.

استدار عماد ناحية الصوت فوجد إياد وهو يعتلي درجات سلّم السطح المائل بشدة. إلا إن عماد استمر بممارسة طقوس عشقه دون أن يكترث لِمَن اقتحم عليه صومعة هيامه.

اقترب أياد من الجسد المتصلّب الواقف والماسك بعصاه الملوحة لكائنات قذرة لا تخلف سوى الفضلات والمردد لكلمات لا ترقى لمستوى خريج أكاديمية الفنون الجميلة قسم المسرح...

حـاول أياد سـرقة عماد مما هو فيه بهزه عـدة هزات لإيقاظه من خدره المثير وانعدام المكان والزمان أمام عينيه.

- عماد ... بشرى سارة.

التفت عماد ناحية أياد دون اكتراث ثم عاود متابعة جميلاته الدلوعات وهـن يتراقصن بهز الذيول أمام عينيه ملقيات ذروقهن على رأسه ليزداد طربًا وانشراحًا وهو يمسح ما علق برأسه منها.

- عماد ... أنزل حيواناتك ودعني أكلمك.

- ماذا تريد؟ أما تراني مشغول.

- موضوع مهم يحتاج اهتمامك.

- تكلم.

- والطيور؟.

- خلصني.. تكلم.

- ولكـن. كيف تسـتمع إليّ ودماغك الوسـخ معلّـق مع هذه الطيور المذراقة.

- أمري إلى الله سأنزلها.

غيّر عماد من إيعازاته لطيوره وكأنّ هناك لغة خاصة للتحليق والهبـوط بينهمـا... انحدرت على إثرها بما يشـبه سـرب طائرات يقـوده طيار أمريكـي محنّك وهو يهبط مـن علیائه على أهداف عراقية أو أفغانية... بدأت الطيور تستشعر مخاطبات هذا الكائن المهووس لتتهادى منزلقة الواحدة بعد الأخرى كما ينزلق الأطفال مستمتعين في لعبة التزحلق في المدن المائية.

تجمعت الطيور على سـطح الدار بتشـكيلات هندسـية ثم سـارت برتل عسـكري وهي تؤدي التحية لعمـاد... دخلت بعدها بكل أريحية وانسـيابية في قفصها المشـبك والـذي وضع فوقه

علم العراق رفرف هو الآخر أمام عيني عماد ليعطيه شعورًا بأنه ما زال موجودًا رغم الانكسارات المتلاحقة لسني عمره الأعرج.

نثر عماد كفًا من الحب داخل القفص، وأغلق على طيوره الباب... ليس خوفًا أن تهرب وتتركه وحيدًا... كيف يكون ذلك؟ وهي ذائبة في قارورة حبه الغرائبي ولكن... خوفًا من القطط التي أحدثت شرخًا كبيرًا في قلبه ما زال يتسع حزنًا لفقده إحدى طيوره والتي أسمها وداد.

- والآن... قل ما الذي اتى بك في هذا الوقت؟

- إن نهايتك لعلى يدِ هذه الطيور الخبيثة.

زمّ عماد على شفتيه وقال نافذ الصبر.

- أياد .. تجاوزت حدودك (يدفعه بكلتا يديه نحو السلّم) لننزل إلى الأسفل .. تكلم واختصر.

ابتسم أياد مليًا بوجه عماد، وطفقا يهبطان السلّم، لتحتويهما غرفة الصالة، التي طالما شهدت صراعاتهم أيام طفولتهم البريئة حينما احتضنه عمّه الكبير أبو أياد وتولى تربيته بعد انتحار والديه. ولم يشفع له أمام عمّه سوى موتهم التراجيدي المؤلم الذي خفّف من العار الذي ألحقه أبو عماد بالعشيرة بزواجه من الغجرية.. هذا الزواج الأشبه بالطاعون الذي أسقط هيبة عقالهم، وكذلك مرد احتضان العم لعماد اتى نتيجة لعدم انجابه ولد في ذلك الحين أجبره على تَكَفّل رعاية عماد ثم ليبقيه أخًا لأياد بعد ولادته والذي رزق به بعد زمن إثر ستّة بنات ليغيش الولدان بصحبة بعض بعلاقة جميلة دفعت العم لأن يسجل احد بيوته البسيطة باسم عماد والذي جعلها سكنًا له بعد وفاة عمه.

- لقد قررت مساعدتك يا عماد في زواجك من الغجرية.

قال أياد جملته وابتسامة عريضة تملأ وجهه. هنا انبلجت

ضياء أسارير عماد ليقفز فرحًا وينهال احتضانًا وتقبيلاً لأياد.

- أحقا ما تقول؟

أومأ أياد بهز رأسه بالإيجاب.

- وطز بالعشيرة وكبير العشيرة.

اهتزت الصالة لضحكهم المجلجل.

سرح خيال عماد الى مديات بعيدة مسافرًا حيث حبيبته التي تعلّق فؤاده الغض بها متخيلاً إيّاها كطائر أشقر أسمه «الشكرلي» يستحثه للقيام بجولة فضائية حول مدارات العشق التي هجرها الجميع نتيجة إملاءات عشائرية واجتماعية بغيضة.

أمسك عماد يد حبيبته لاثمًا أناملها بشفتيه المرتعشتين، واضعًا راحتيها على خدّيه التي غزاهما الشعر الابيض، واحتل كل ملم في بقاعهما السمراء دون أن تأخذه الرحمة ببقية الرأس لتشتعل هامته ببركان ثلجي يتكلم باللون الابيض.

استسلمت الفتاة ذات العشرين سنة لمداعبات الرجل الطفل رغم أنّ تفكيرها منحصر بأمر آخر تخاف ان يصادر سعادتها بهذا الطفل الاسطوري الذي يترنح سكرانًا أمام جمالها.

- إذن قررت الزواج مني يا عماد؟

- والآن إذا أحببتِ.

- لكن.. هناك أمر يقلقني.

- ....؟؟؟؟

- الطيور.

- ما بها؟

- أراها كضرّة لي.

- وهل هناك أجمل من الطيور؟

- توقعت ذلك منك.. أخبرني بصراحة هل تبقي على الطيور معنا أم إنك ستتخلص منها.. فأنا لا يمكن لي العيش مع حيوانات لا هم لها سوى الأكل والطيران وترك المخلفات القذرة.

- لكن ...

- عماد .. أتكلم معك بصراحة إما أنا أو الطيور.

انهال عماد على علبة السجائر تدخينًا بلا فاصل زمني، حتى امتلأت أركان الغرفة دخانًا أبيضًا عطّر كل ما فيها، وانتشرت أعقاب السجائر في أرضية الغرفة كقتلى حرب دُفع فيها المقاتلون عنوة وجميعهم كانوا دون السن القانونية.

تنازع طرفي قلبَ عماد نقيضان لا يعلم لأيهما يستجيب.. فتلك فتاة أحلامه، وستصبح زوجته، والتي من أجلها قاطع العباد والبلاد. وهذه الطيور أنيسة عمره التي طالما نضحت على وجهه رذاذ جمالها.

وبعد أن عجز عن الاختيار، وبعد أن ابتلع كل سجائر العلبة ودخانها المتصاعد وهو يتلوى كالأفعى، اتجه إلى سماعة الهاتف، وزوّل أرقامًا بإصبع السبابة المرتجف المتردد، وبلسان فقد القدرة على النطق الصحيح، وبنبرة متحشرجة خرجت معها الكلمات ثقيلة، وكأنّه يهمس من قاع الموت الذي أطبق بقبضته على رقبته المتضعضعة.

- حبيبتي .. قررت أن أبيع الطيور.. وزواجنا غدًا.

- حبيبي تتكلم جد....؟

صرخ بأعلى صوته وكانّه فلت من عقاله المهيمن على روحه الأسيرة.

- نعم.. ومثلما اردت.

رمى السماعة بعيدًا وهو يبكي.

- مثلما أردت.. مثلما أردت.

ودّع أياد العروسين بالدعاء لهم بالموفقية والزواج السعيد.. وفيما هو يغادر المكان أسَرّ بأذن عماد كلمة أججت النار الخابية في قلبه.

- أليس هذا الملاك بأفضل من طيورك القذرة.

دخل العروسان عشهم الزوجي وذراع أحدهما يلتفّ بخصر الآخر... حانت التفاتة مقصودة من عماد باتجاه سلّم البيت زفر باتجاهه غصّة راقدة في قلبه لو أنّها خرجت في وجه الدنيا لأحرقته.

جلسا على حافة السرير دون كلام .. رمقها بنظرة عتاب. ردت عليه بنظرة عتاب أخرى دعته لأن يجلس على الأرض، وأطلق العنان لفمه في استقبال حشود الدخان التي استولت على مسامات الهواء. نظرت اليه مليًا، فنطقت أخيرًا بعد صمت أشبه بصمت أهل القبور.

- رحيل الطيور؟ ..ها.. تكلم ..هو من أقظ مضجعك؟

نظر إليها من خلل الدخان المتصاعد من سيجارته.

- أريد أن أنام .. أنا تعبٌ جدًا.

- وأنا ؟

- أنتِ ؟ أنتِ.

رمى آخر عقب سيجارة دخنها على الأرض وتلفع بدخانها المنتشر في أرجاء الغرفة، وارتمى على السرير، وأدار ظهره، وراح يقاتل من أجل التفكير بفرصة للهرب من وضع سيء نبتت براثنه بقوة في جسده الناحل. فما كان منها هي الأخرى إلا أن تسحب إحدى الوسائد وتنام على الأرض ببدلة عرسها ودموعها

الساخنة تتقافز من عيونها الوحشية التي اعتلاها بريق لو لامس الصخر شعاعه لطحنه.

ومع تباشير الصباح وبعد أن استسلم جسد عماد المنهك لسلطان النوم القسري، وبعد يأسه من كيفية معالجة أمره مع زوجته ومع طيوره، استيقظ الطفل الرابض في جسده ليرمي بنظره مباشرة إلى الجسد النائم تحت السرير والذي كان يراه يتململ تململ السقيم طوال ساعات الليل. إلا أنّه لم يرى سوى وسادة فارغة من رأس حبيبته، وحصيرة حارة فارقها جسدٌ ساخن قبل قليل.

انتفض باحثًا عن هذا الملاك في أرجاء البيت إلا أنّه لم يعثر عليه. وهناك وجد باب السطح مفتوحًا فتبادر إلى ذهنه أنّها ربما صعدت السطح لتتنسم هواء الصباح العليل. لكنّه سمع أصواتًا طالما شنفت أسماعه بتواشيحها الأسطورية العذبة.

حينما استقام عماد وسط السطح، وجد طيوره وقد تناثرت محتفلة بوجوده معها على مسرح شهد أجمل أدوار الحب بينهم. اقتربت منه بحلقة دائرية ولسان حالها يقول لقد اتفقنا معها على أحدنا أن يختفي فاختفت هي وعدنا إليك يا عماد.

«كش عاع» عادت حنجرة عماد للتغريد من جديد وطيوره تملأ الفضاء محلقة بمتعة طفل أدمن مداعبة أبويه بحنان مفرط..

ثمة صوت يتردد في أجواء السطح لرجل مشاكس اعتاد أن يهجم على عماد وهو يمارس أدوار العاشق الولهان ....

- مَنْ؟ أياد؟

- صباحُك مبارك، يا عريس.

***

السيرة الذاتية

كاظم نعمة اللامي كاتب عراقي كتب في مجال القصة والمسرح لديه أعمال مسرحية عديدة تأليفًا وإخراجًا ، وكذلك حاصل على العديد من الجوائز الرسمية في مجال القصة والمسرح.

وهذه المجموعة القصصية الثانية التي يكتبها بعد مجموعة نوستالوجيا ، كما سبقتها مجموعتان مسرحييتان: كاتم الصمت، ويوم قيامة آخر.